

الإسلام في الدعاية الألمانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى

عبدالرؤوف سنو
أستاذ في الجامعة اللبنانية

إذا صح أن الحرب العالمية الأولى كانت في الأساس حرباً أوروبية اندلعت لأسباب تتعلق بالتنافس الإمبريالي، فالصحيح أيضاً، أنها تلونت بطابع شرقي منذ انضمام الدولة العثمانية للصراع إلى جانب دول الوسط، ألمانيا والنمسا/هنغاريا وبلغاريا في تشرين الثاني 1914. وبكلمة أخرى، أصبح لهذه الحرب جانبها الإسلامي المميز بعد إعلان السلطان العثماني "الجهاد المقدس" ضد دول "الوفاق الودي" المسيحية، بريطانيا وفرنسا وروسيا، مستثنياً من هذا "الجهاد" مسيحيين آخرين هم حلفاؤه في دول الوسط. وقد حفلت هذه المرحلة بإشكاليات عديدة، منها ظهور ثلاثية للجهاد الإسلامي المقدس: جهاد "عثماني" داعم لألمانيا وحلفائها المسيحيين، وجهاد آخر "عربي" مضاد دعا إليه شريف مكة حسين بن علي المتحالف مع بريطانيا،¹ وجهاد "شيعي" للمرجعيات الدينية في النجف وكربلاء ضد البريطانيين حث عليه الألمان.² كما صدرت فتاوى عن علماء مغاربة لمصلحة خلافة إسلامية بشخص السلطان يوسف تكون منافسة للخلافة العثمانية، وذلك استناداً إلى نسبه الشريف.³

إن كل هذه المسائل التي ذكرتها تنعكس مباشرة على مداخل البحث ومضامينه. وما نريد أن نخلص إليه هو: إن دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا وإعلانها "الجهاد" ضد أعدائها،

¹ حول دعوة الشريف حسين المسلمين إلى الجهاد : أنظر: زين نور الدين زين، أسباب الثورة العربية الكبرى، في: *دراسات في الثورة العربية الكبرى*، عمان لات، ص 38. وقارن بـ:

William L. Cleveland., "The Role of Islam as Political Ideology in the First World War", in: Edward Ingram ed.: *National and International Politics in the Middle East. Essays in Honour of Elie Kedourie*, London 1986, p.86.

² "بعثة كلاين" (Expedition Klein) نهاية عام 1914، والتي زارت فارس أيضاً. راجع: Gottfried Hagen, Die Türkei im Ersten Weltkrieg, Frankfurt a.M. ect., 1990, pp. 37f. وفي أعقاب زيارة كلاين إلى العراق، صدرت فتوى مماثلة للجهاد "العثماني" عن أعلى مرجعية دينية في النجف. أنظر:

Martin Hartmann, "Islampolitik", in: *Koloniale Rundschau* 11-12(1914), p.596.

في ما بعد. وعلى كل حال، سوف نتطرق في حينه إلى موقف المرجعيات الشيعية من مسألة الجهاد.

³ Edmund Burke, "Moroccan Resistance, Pan-Islam and German War Strategy, 1914-1918", in: *Francia* (München), 3 (1975), pp. 456-457.

حول إشكالية تنصيب سلطان المغرب أو شريف مكة خليفة على المسلمين، أنظر: وجيه كوثراني، "الأبعاد الجيوسياسية لتقسيم العالم لإسلامي"، في: *رسالة الجهاد* (مالطة)، 101 (1991)، ص 96-105.

وانتهاج ألمانيا سياسة إسلامية تقوم على استغلال هذا "الجهاد" لمصلحة أهدافها الاستراتيجية، جعل للحرب عنواناً عريضاً، وهو أن "الجهاد (العثماني) صنع في ألمانيا"⁴، مع كل ما حملته سياسة ألمانيا المتحالفة مع الإسلام من مواقف مؤيدة لها داخل ألمانيا وفي العالم الإسلامي، وأخرى مضادة، مشحونة بالتجربة التاريخية بين المسيحية والإسلام،⁵ أو الاعتقاد بعدم فائدة التحالف مع العثمانيين بالنسبة لرافضي هذا التحالف.⁶

بناءً على ما تقدم، تهدف هذه الدراسة إلى تتبع مسار توظيف ألمانيا الإسلام والجهاد المقدس والجامعة الإسلامية ضمن مخططاتها لإثارة العالمين العربي والإسلامي ضد أعدائها، وتحديد أوجه النشاطات والعمليات التي اضطلعت بها الدعاية الألمانية وغلفت بها أهدافها الحقيقية، وكيف استقبل العرب في المشرق العربي هذه الدعاية، ولماذا أخيراً لم تحقق الدعاية الألمانية أهدافها، هذا على الرغم من الأصداء الإيجابية لسياسة ألمانيا الإسلامية في العالم الإسلامي قبل الحرب وأثنائها عموماً، وفي العالم العربي خصوصاً؟ وهذا يقودنا إلى طرح الفرضية التالية: إن

⁴ من المروجين الرئيسيين لمقولة "الجهاد صنع في ألمانيا" المستشرق الهولندي سنوك هورغرونجيه. راجع مقاله الشهير:

Snouck C. Hurgronje., Verspreide Geschriften, vol. III. The Holy War "Made in Germany", 1915.

⁵ استند معارضو التحالف من الألمان إلى ثلاثة مبادئ، وهي أولاً: اختلاف مفهوم الحرب بالنسبة لكل من ألمانيا والدولة العثمانية، حيث لا انفصال بين الحرب والجهاد بالنسبة للبلدان الإسلامية، في حين أن الحرب بالنسبة لألمانيا هي حرب الأمة الألمانية ضد الأمم المسيحية الأخرى وليست حرباً للدين المسيحي؛ ثانياً: التجربة التاريخية بين الدولة العثمانية والبلدان المسيحية نتيجة للفتوحات العثمانية في أوروبا؛ ثالثاً: الاختلافات الدينية والحضارية والثقافية بين الإسلام والمسيحية. وكتب ك. أكسنفيلد (K. Axenfeld)، سكرتير الجمعية التبشيرية في برلين، إلى رئيس الوزراء الألماني يقول فيها: إنه يفهم المعطيات التي جعلت ألمانيا تتحالف مع الإسلام. لكنه حذر في الوقت نفسه من أن يؤدي هذا التحالف إلى انتهاك القيم المسيحية وتقديم تنازلات دينية إلى الدولة العثمانية. أنظر: الأرشيف السياسي في وزارة الخارجية الألمانية - برلين: PAAA, Der Weltkrieg (=WK) Nr. 11, R 20936, , Akten betreffend den Krieg 1914, Unternehmungen und Aufwiegelungen gegen unsere Feinde. Allgemeines, vol. 1, K. Axenfeld to Bethmann (Gottfried) Galli, A 21751, Berlin Sept. 2nd 1914. - ومن جهته، انتقد غوتفريد غالي (Gottfried Dschihad. Der heilige Krieg des Islams und seine Bedeutung im Weltkrieg unter besonderer Berücksichtigung der Interessen Deutschlands, Freiburg 1915, pp. 5-8.

تحالف ألمانيا مع الدولة العثمانية، لأن ذلك يجعلها تماشي الجهاد، مما يفقدها ضميرها المسيحي وبالتالي قوتها. واعتبر غالي أن هذا الجهاد قد ألحق البلاء والويلات والرعب بالمسيحية وأبان عن طبيعته من خلال المجازر الأرمنية. ومن جهة أخرى، دافع عدد من المستشرقين الألمان عن هذا التحالف، ومنهم أويغن متفوخ Eugen Mittwoch، في كتابه Deutschland, die Türkei und der Heilige Krieg, Berlin 1914, pp. 3 – 16. فاعتبر أن الجهاد الذي أعلنته الدولة العثمانية لمصلحة دول الوسط هو حرب دفاعية من أجل بقاء السلطنة، ولا يُعد انتهاكاً للإسلام. أما Richard Schäfer, Islam und Weltkrieg, Leipzig 1915, pp. 1-28 فرأى أن الدولة العثمانية توقفت أن تكون المهديد للمسيحية منذ القرن السابع عشر، وأنها أخذت تسيير على طريق المدنية المسيحية منذ إعادة العمل بالدستور العثماني والابتعاد عن الشريعة الإسلامية والاعتراف بالعادات والقيم المسيحية والالتزام بروح المسيحية. Gall, p. 37.

M.E. Yapp, The Making of the Modern Near East 1792-1923, 3rd impression, London/New York 1989, pp. 271f.

الجهاد "العثماني" الذي جعلت الدعاية الألمانية منه هدفاً مركزياً لسياسة استقطاب العرب والمسلمين وراء أهداف ألمانيا في الحرب، لم يُكتب له النجاح، وذلك لسببين: 1- تركيز الدعاية الألمانية مضامين الجامعة الإسلامية بين المسلمين على ضرورة إطاعة السلطان – الخليفة، في وقت تجاوزت فيه المشاعر القومية للعرب مغريات هذا النوع من التضامن الديني والولاء السياسي؛ 2- تمكن بريطانيا من احتواء كل مخططات ألمانيا ودعايتها وتطويق التحالف الألماني – العثماني عبر سلسلة من الاتفاقات مع العرب أو إعطاء الوعود لهم.

1) الإسلام في استراتيجية الحرب الألمانية

قبل الحرب العالمية الأولى، وتحديداً منذ منتصف الثمانينات من القرن التاسع عشر، استخدمت ألمانيا أكثر من مرة نفوذ السلطان العثماني كخليفة من أجل مصالحها الاستعمارية الخاصة في إفريقيا وآسيا.⁷ وبسبب تنامي هذه المصالح وخصوصاً في آسيا الصغرى، وفي مقدمها تغلغل رأسمالها في تلك المنطقة، ومشروع بناء سكة حديد بغداد كتجسيد لاستراتيجية برية نحو الشرق الأدنى مناهضة لاستراتيجية بريطانيا البحرية إلى المنطقة، سارت ألمانيا قدماً في سياسة للحفاظ على الدولة العثمانية والإبقاء على الوضع الراهن في الشرق ومنع أية دولة من الانفراد في حل المسألة الشرقية.⁸ فرفضت على التوالي عامي 1895 و1912 مشروعين بريطاني وآخر دولي لتقسيم الدولة العثمانية.⁹ وقد انطلقت ألمانيا في سياستها هذه من اعتبارات اقتصادية، حيث رأت لجنة خاصة شكلتها: "إن قدرات آسيا الصغرى الاستيعابية للرأسمال والصناعة والتجارة الألمانية لا تزال مفتوحة من خلال مشاريع سكك الحديد واستغلال ثروات الأرض الباطنية وتنمية الزراعة، وإن الحل الأفضل لاستمرار سياسة التغلغل السلمي (الألمانية) لا يكون بحل المسألة الشرقية، وإنما في الحفاظ على الوضع الراهن"¹⁰.

⁷ حول استعادة ألمانيا من النفوذ الديني للسلطان العثماني: في إفريقيا، أنظر: عبد الرؤوف سنو، "الدبلوماسية الألمانية ومحاولات إحياء الجامعة الإسلامية بين السلطنة العثمانية والمغرب الأقصى (1870 – 1890)"، في: *حوليات* = (بيروت)، *تكريم البروفيسور الأب جان موريس فييه*، 6 أ (1991-1992)، ص 123 – 155؛ المؤلف نفسه، "سياسة ألمانيا الاستعمارية في شرق إفريقيا: محاولات استغلال النفوذ الديني للسلطان العثماني للتغلغل في زنجبار"، في: وجيه عتيق وفولفجانج شفانتس (ناشران)، *إعمال ندوة مصر وألمانيا في القرنين التاسع عشر والعشرين*، القاهرة 1998، ص 7 – 37. وحول الصين: سنو، مقال قيد الإعداد.

⁸ حول سياسة ألمانيا القاضية بالحفاظ على سلامة الدولة العثمانية، أنظر: عبد الرؤوف سنو، "ألمانيا وسياسة الاندفاع نحو الشرق": العلاقات الألمانية العثمانية من 1871 إلى 1918"، في: *دراسات إسلامية* (بيروت)، 3 (1990/1989)، ص 273 – 281. وفي شأن استراتيجية ألمانيا البرية إلى الخليج العربي عبر السلطنة، المقال نفسه، ص 286.

⁹ سنو، ألمانيا وسياسة الاندفاع نحو الشرق"، ص 274 – 275؛ وبالنسبة إلى شائعات تقسم السلطنة التي راجت عام 1912 أنظر: عزيز بك، سورية ولبنان في الحرب العالمية الأولى، ج3، لات، لام، ص 75 – 77، وتحديداً نصيب ألمانيا من عملية التقسيم هذه. أما Hagen, p. 14. فينيها جملة وتقصيلاً.

¹⁰ PAAA/Türkei, 189, Sicherstellung der deutschen Interessen für den Fall der Lösung der Dardanellenfrage, Referent L.R. Rauffauf, II 17207, Berlin July 19th, 1894, pp. 8 – 12.

بناءً على ما تقدم، اضطلع مستشرقون واقتصاديون ألمان في الدفاع عن سياسة حكومتهم والتبرير بأن مستقبل ألمانيا الاقتصادي هو في آسيا الصغرى وسورية والعراق. فوضعوا دراسات وتقارير ومذكرات، وأنفسهم أيضاً، في تصرف المجهود الحربي الألماني عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى. ومن هؤلاء المستشرقين والاقتصاديين على سبيل المثال: ماكس فون أوبنهايم (Max von Oppenheim)، وبول رورباخ (Paul Rohrbach) وأرنست ياكه (Ernst Jäckh)، وفريدريش ناومان (Friedrich Naumann). يُضاف إليهم كارل هـ. بيكر (Carl H. Becker)، وهوغو غروته (Hugo Grothe) وأويغن متفوخ (Eugen Mittwoch)¹¹ وغيرهم.

ويعتبر المستشرق ماكس فون أوبنهايم¹² أحد كبار الشخصيات الألمانية التي لفتت الانتباه إلى أهمية استخدام الجامعة الإسلامية والجهاد وصفة السلطان العثماني كخليفة من أجل استمالة الشعوب الإسلامية الخاضعة لبريطانيا وفرنسا وروسيا وتوظيف ذلك في انتفاضات تنهك هذه الدول وتشغل قواتها في حال اندلع الصراع بينها وبين ألمانيا.¹³ ونتيجة لعمله في الشرق كعالم آثار ودبلوماسي ومعرفة الواسعة بأوضاع العالمين العربي والإسلامي وارتباطه بصداقات مع عدد كبير من الشخصيات السياسية والحزبية والفكرية العربية والإسلامية، استطاع أوبنهايم أن يكسب ثقة إمبراطور ألمانيا كخبير في أوضاع العالم الإسلامي يمتلك برنامجاً واسعاً لمناهضة دول الوفاق الودي في مناطق نفوذها واستعمارها، وذلك أثناء أشد مراحل التنافس الإمبريالي في العقدين اللذين سبقا الحرب العالمية الأولى. من هنا، أطلق عليه لقب "الأب الروحي للجهاد الإسلامي"،¹⁴ و"لورانس القيصر"¹⁵ تشبهاً بلورانس العرب، في حين وصفته الدوائر البريطانية والفرنسية بـ "جاسوس القيصر".¹⁶ وقد سببت سياسة أوبنهايم الداعمة لحركة الجامعة الإسلامية قبل الحرب وأثنائها إرباكاً لدى الدوائر الاستعمارية البريطانية والفرنسية. وأزعجت بشكل خاص حاكم بريطانيا

¹¹ عمل رورباخ بعد اندلاع الحرب في قسم الأخبار في دائرة البحرية وأصبح في تشرين الأول 1914 رئيساً لدائرة الشؤون الخارجية في وزارة الخارجية الألمانية. أما ياكه، فترأس دائرة الشؤون الاقتصادية. كما عُين ناومان رئيساً لدائرة وسط أوروبا. وترأس عالم الإسلاميات بيكر حلقة دراسية في وزارة الخارجية حول الأوضاع في منطقة الشرق الأدنى. أخيراً وليس آخراً، قام غروته خلال الحرب برحلات دعائية لمصلحة بلاده في هنغاريا ورومانيا والدولة العثمانية. حول نشاطات هؤلاء المستشرقين، راجع: Rathmann, pp. 107 – 108.

¹² (1860 – 1946) مستشرق ألماني من أصل يهودي قام برحلات استكشاف إلى المغرب والصحراء الغربية وسورية والعراق وآسيا الصغرى والخليج العربي، وأقام في مصر بين عامي 1896 و1909. وبين عامي 1896 و1909، وضع اثنتي عشر مجلداً تضمنت تقارير حول كيفية استغلال ألمانيا الإسلام والجامعة الإسلامية في صراعاتها ضد كل من بريطانيا وفرنسا. وقد وضع أوبنهايم عدة مذكرات تتعلق بالتطورات في مصر وشمال إفريقيا وعلاقة مصر ببريطانيا. راجع:

Hans Dirk Studt, "Max von Oppenheim und der Nahe Osten – Lebensraum oder politische Intrige?" In: *asien afrika lateinamerika*, 27 (1999), pp. 137 – 157.

¹³ حول سياسة أوبنهايم في استغلال الجامعة الإسلامية وصفة السلطان العثماني كخليفة في مخططات ألمانيا PAAA, *Orientalia Generalia* 9, Nr. 1, Berichte imperialiale قبل الحرب، أنظر تقاريره في: Oppenheim, 12 vols. 1896 – 1909.

¹⁴ Hagen, p. 30.

¹⁵ Roger Faligot/Remi Kauffer, *Le croissant et la croix gammée. Les secret de l'alliance entre l'Islam et le nazisme d'Hitler a nos jours*, Albin Michel, p. 19.

¹⁶ عبد الرؤوف سنو، "المصالح الألمانية في لبنان 1831 – 1918"، في: *أوراق جامعية* (بيروت)، 232 – 233.

العام في مصر اللورد كرومر (Lord Cromer)، الذي طالب برلين عبر حكومته في لندن أكثر من مرة دون نجاح باستدعائه من مصر.¹⁷

وكان أوبنهايم وراء الخطاب الشهير الذي ألقاه الإمبراطور وليم الثاني في دمشق عام 1898 وأعلن فيه عن صداقته للمسلمين في العالم وخليفته السلطان عبد الحميد الثاني،¹⁸ ودشن من خلاله سياسة جديدة لبلاده تقوم على استغلال الإسلام في سبيل مناهضة دول الاستعمار الأخرى.¹⁹ وفي عام 1905، وزع في بيروت رسم لإمبراطور ألمانيا يظهر فيه رأسه في وسط الهلال الإسلامي، كإشارة إلى المركز الذي كانت تسعى ألمانيا لاحتلاله في العالم الإسلامي وفرض الوصاية عليه.²⁰ كل هذه الأمور أكدت على قناعة المسلمين بأن ألمانيا هي دولة صديقة للإسلام تعمل من أجل تحرير الشعوب الإسلامية المستعمرة. فساد في البلدان العربية شعور بإمكانية أسلمة إمبراطور ألمانيا وشعبها وبالتالي تقوية الإسلام السياسي تجاه دول الاستعمار المتربصة به.²¹ ووصل الأمر عشية الحرب العالمية الأولى، بأن توقع مختار باشا، ممثل السلطان العثماني في مصر، إمكانية تحرير هذا البلد باثنتي عشر فيلقاً عثمانياً مدعومين من قبل الألمان، وذلك انطلاقاً من سورية.²² وبعد عشر سنوات على قوله هذا، شن العثمانيون وفي إطار تحالف مع ألمانيا أول حملة لهم على السويس لطرد البريطانيين من مصر.

عندما اندلعت الحرب، أدرك أوبنهايم ضرورة وجود مؤسسة تتولى الدعاية لبلاده بين العرب والمسلمين. فتقدم بمذكرتين إلى رئيس الوزراء الألماني بتمان هولفغ (Bethmann Hollweg) بتاريخ 18 آب 1914، ومذكرة ثالثة في مطلع تشرين الأول حول أهمية تحريض المسلمين على الثورة في مناطق العدو.

وتعتبر المذكرة الأخيرة، وهي الأطول (136 صفحة) والأهم والأكثر تحديداً لكيفية محاربة ألمانيا دول الوفاق عبر استغلال الجهاد المقدس وصفة السلطان العثماني كخليفة ونشر الدعاية باسمه. رأت تلك المذكرة أن أول خطوة على ألمانيا أن تأخذها هي إثارة العالم الإسلامي ضد أعدائها تحت راية السلطان - الخليفة من خلال منظمة محددة الهدف. واعتبر أوبنهايم أن

17 Thomas W. Kramer, *Deutsch-ägyptische Beziehungen in Vergangenheit und Gegenwart*, Tübingen/Basel 1974, pp. 60 – 61.

18 Gottfried Hagen, *Die Türkei im Ersten Weltkrieg*, Frankfurt a.M. ect. 1990, p. 31; Fisher, p. 142.

19 Abdul Hamid, "Sultan and Khalif, and the Pan-Islamic Movement", in: *Blockwood's Magazine* 180, 1091(1906), P. 307.

20 PAAA/Orientalia Generalia, vol. 3, Oppenheim to Bülow, Nr. 325, A 2970, Cairo. Feb 14th 1907. Anh. 1 Photographie.

21 حول انتشار فكرة أسلمة إمبراطور ألمانيا والشعب الألماني، راجع مقالتي: عبد الرؤوف سنو، "الدعوة إلى الإسلام والعلاقات الدولية: قراءة في الوعي السياسي في مطلع القرن العشرين"، في: *الاجتهاد* (بيروت)، 46/45 (2000)، ص 241 – 274.

22 F.O. 371/59, Cromer to Grey, secret, No. 146, CairoDec.12th .1905.

نشاطاً ألمانيا تجاه مصر والهند، والقضاء على الأسطول الروسي في البحر الأسود، سيكونان أهم معلم من معالم الحرب. فبالنسبة لبريطانيا، اعتقد أوبنهايم أن حملة عثمانية تحتل مصر وثورات تندلع في الهند، كقيلة بزعة مركز بريطانيا، مما يجعلها بين خيارين اثنين، إما إرسال نصف أسطولها إلى مياه الهند، مع كل ما يحمله هذا من تأثير سلبي على قوتها البحرية في مناطق الصراع الأوروبي، أو عقد السلام مع بلاده. وأكد أوبنهايم، إن كل المصريين المسلمين، ومن ضمنهم علماء الأزهر والجماعات الإسلامية، هم مع الدولة العثمانية وألمانيا، وذلك كراهية بدولة الاحتلال بريطانيا، فيما يناصر الأقباط والمسيحيون السوريين والأرمن دول الوفاق الودي. واعتقد أن المصريين سوف ينحازون إلى دول الوسط حالما تُلحق الهزائم بالبريطانيين في أوروبا وتعتبر طلائع الجيش العثماني الزاحف على مصر من فلسطين قناة السويس. ولم يستثن أوبنهايم من مخططاته أهمية الخديوي عباس حلمي الثاني والطريقتين السنوسية في "ليبيا" والمهدية في السودان في التأثير على مصر. وخلص إلى أن سقوط مصر بأيدي العثمانيين بدعم من مستشارين ألمان، سوف يغير مجرى الحرب كلها. وكما هو الحال بالنسبة للمسيحيين المصريين، حذر أوبنهايم الخارجية الألمانية من مواقف عدائية للمسيحيين السوريين لعرقلة الحملة العثمانية المنشودة على مصر بالتعاون مع دول الوفاق.

وفيما يتعلق بالهند، لفت أوبنهايم في مذكرته إلى أهمية جمع الدولة العثمانية وفارس وأفغانستان في حلف واحد، تكون فيه أفغانستان رأس حربة لمهاجمة الهند وطرد بريطانيا منها، وفارس الجسر الذي تعبر عليه القوات العثمانية إلى أفغانستان، وذلك "...لأن الطريق البري عبر هذه الدول (السلطنة العثمانية وفارس وأفغانستان) هو الاتصال الآمن الوحيد مع الهند من أجل تسهيل محاربة أفغانستان لبريطانيا في الهند".²³ ورأى أوبنهايم أن يسبق ذلك عقد معاهدة بين الأستانة وطهران بوساطة ألمانية من أجل إزالة الشكوك فيما بينهما. واعتبر أوبنهايم أن انضمام أفغانستان إلى دول الوسط سيكون أهم لحظة من فترات الحرب.

أما بالنسبة لروسيا، اعتقد أوبنهايم أنه حالما يتم القضاء على الأسطول الروسي في البحر الأسود، فإن المسلمين الخاضعين لتلك الدولة سوف يقومون بالثورة، وخصوصاً في منطقة القوقاز. كما اقترح أن يسبق أي نشاط عسكري عثماني ضد روسيا، تدمير منابع النفط في باكو. وعلى المنوال نفسه، اعتقد أوبنهايم بسهولة تحريض مسلمي المغرب ضد فرنسا، وذلك بسبب سياستها التعسفية تجاه السكان، بعدما حطمت تلك الدولة سمعة المخزن والحكومة الشريفية ونفوذ الطرق الصوفية هناك. ورأى أوبنهايم أن إيصال الأسلحة والأموال إلى تلك المنطقة، سوف يدفع الناس للثورة ضد الفرنسيين. وعلى الرغم من أنه توقع عدم حدوث ثورة عامة في المغرب، إلا أنه اعتقد بأن ثورات متفرقة هنا وهناك سوف تشغل الفرنسيين، ويكون لها تأثير على الجزائر وتونس، حيث الكراهية للفرنسيين لا تقل عن تلك لدى المغاربة.

وفي ختام المذكرة، حدد أوبنهايم الهدف المركزي لبلاده، وهو جعل الإسلام سلاحاً يخدم المصالح الألمانية. فقال: "إن الإسلام سوف يكون أهم أسلحتنا على الإطلاق في الصراع المجبرين عليه ضد إنكلترا، لأن علينا أن نخوضه بالسكين". وأضاف، لقد تمكنا من فرش الأرضية لثورة إسلامية عامة، وإن إمبراطور ألمانيا قد "... أدرك منذ الوهلة الأولى أهمية هذه اللحظة التي

يمكن من خلالها الاستفادة من الشعوب الإسلامية، بعدما ثبت في نظر المسلمين إجلاله للإسلام وأظهر لاتباع هذا الدين المودة والمساعدة". وأردف بالقول: "إن عشرين سنة من الإقامة في الشرق تجعلني معتقاً بأن جلالة الإمبراطور يحظى في كل العالم الإسلامي على الاحترام والتبجيل من أعماق القلوب"²⁴.

وإذا كان أوبنهايم قد شدد على الأهمية الدينية للسلطان العثماني في استراتيجية الحرب لبلاده، فقد كانت القيادتان السياسية والعسكرية الألمانيّتان تعولان بدورهما على هذا الجانب في الحرب الدائرة. لكنهما لم تقللا من جهة أخرى من أهمية موقع السلطنة الاستراتيجية في الصراع الكوني: إشرافها على الممرات، البوسفور والدردينيل، وكذلك على الطريق البري بين أوروبا والخليج العربي.

وتتضح أهمية الدولة العثمانية بالنسبة لاستراتيجية الحرب الألمانية من خلال أحاديث الإمبراطور الألماني ومواقفه مع المسؤولين الألمان الآخرين من تلك الدولة. فعندما سئل في مناسبتين مختلفتين في ضوء توتر الأوضاع الدولية بين عامي 1904 و1914 عن توقعاته لما قد يحدث، أجاب غامزاً من قناة التنافس الحاد بين بلاده وبريطانيا، بأن على ألمانيا ألا تشن الحرب قبل عقد حلف مع الدولة العثمانية بأي ثمن، وإن على البريطانيين أن يفهموا إن الحرب مع ألمانيا ستعني خسارتهم للهند.²⁵ من هنا، عمل الألمان في أعقاب الهزائم التي لحقت بالجيش العثماني في الحرب العثمانية – الإيطالية عام 1912 حول طرابلس، والحروب البلقانية عامي 1912 و1913، على إعادة بناء هذا الجيش كي يكون مؤهلاً للحرب. وفي تموز 1914، بعث الجنرال فون ساندرز (General von Sanders)، رئيس البعثة العسكرية الألمانية في الأستانة، بتقرير ذكر فيه إن إعادة تنظيم الجيش العثماني قد حققت خطوات كبيرة، وإن السلطنة تستطيع أن تضع في المعركة ما بين أربعة إلى خمسة فيالق دون أن تتكرر كارثة البلقان مرة أخرى.²⁶

وقبل أيام قليلة على بدء الحرب، كتب الإمبراطور على هامش برقية وصلته من الجنرال فون ساندرز تتعلق برغبته في العودة إلى ألمانيا في حال اندلعت الحرب: "عليكم البقاء (في الدولة العثمانية) وشن الحرب وإضرار الثورة ضد بريطانيا. ألا يعرف (ساندرز) "أضاف الإمبراطور" حول التحالف القادم (مع الدولة العثمانية)، والذي عليه أن يتولى قيادته"²⁷. وختم بالقول: "... على قناصلنا وعملائنا في تركيا والهند تحريض كل العالم الإسلامي من أجل الثورة الضارية ضد هذا

24 PAAA/WK, Nr. 11, R 20937 , vol. 2, Denkschrift Oppenheim, p. 125.

25 Fritz Fischer, Griff nach der Weltmacht. Die Kriegszielpolitik des kaiserlichen Deutschland 1914/1918, 4. Aufl. Düsseldorf 1971, p. 139; Wilhelm von Kampen, Studien zur deutschen Türkenpolitik in der Zeit Wilhelms II., Ph.D. thesis, University of Kiel, p.66.

26 Irmgard Farah, die deutsche Pressepolitik und Propagandatätigkeit im Osmanischen Reich von 1908 –1918 unter besonderer Berücksichtigung des "Osmanischen Lloyd", Beirut 1993, p. 221.

27 Fischer, Griff nach der Weltmacht, pp. 139 –140.

نقلاً عن:

الشعب التاجر الصغير المكروه وعديم الضمير (البريطانيين). فعندما ننزف نحن، فعلى بريطانيا أن تخسر الهند على الأقل" ²⁸.

ومن جهته، أدرك هلموت فون مولتكه (Helmuth von Moltke)، رئيس أركان الجيش الألماني، أهمية الجامعة الإسلامية لتحقيق بلاده أهدافها من الحرب. فكتب إلى وزارة الخارجية في 2 آب 1914، تاريخ توقيع معاهدة التحالف بين الدولة العثمانية وألمانيا) يقول: "إن إحداهم تمرد في الهند ومصر، وكذلك في القوقاز له أهمية قصوى. ومن خلال معاهدة (تحالف) مع الدولة العثمانية، أصبح في إمكان وزارة الخارجية تنفيذ هذه الأفكار وتحريض الإسلام المتعصب" ²⁹. لقد كان الألمان ينظرون إلى الجامعة الإسلامية، كغيرهم من الأوروبيين، على أنها حركة تعصب ديني ضد أوروبا المسيحية. إلا أنهم كانوا من جهة أخرى يحتاجون "تعصبها" في صراعهم مع دول الوفاق الودي، وذلك لأنها الوحيدة القادرة على خدمة أهداف بلادهم من الحرب عبر تجييش المسلمين خلف شعاراتها ومضامينها. وكان هذا يتطلب حسب رأيه، تعاون فارس ودخولها في الحرب إلى جانب ألمانيا لتكون رأس جسر للعبور إلى أفغانستان، ³⁰ أو إبقائها على الحياد في أسوأ الحالات. من هنا، كان هناك اهتمام ألماني بإعلان فارس وأفغانستان الجهاد وانضمامهما إلى دول الوسط. ³¹ ويذكر بعض المؤرخين إن إعلان "الجهاد" كان أحد الشروط الألمانية للتحالف مع الدولة العثمانية، وجاء بعد إلحاح شديد من قبل برلين. ³² ووصف أحد المراقبين الألمان المعاصرين "الجهاد المقدس" الذي أعلنه السلطان العثماني " بأنه "وسيلة قوية تسير جنباً إلى جنب مع الجيوش العثمانية في أراضي العدو"، ³³ وهو، أي الجهاد الإسلامي، لا يجعل من دول الوفاق الودي أعداءً للدولة العثمانية فحسب، وإنما للإسلام قاطبة.

لقد عكس كلام القيادة الألمانية إذن هدفاً استراتيجياً، وهو محاربة بريطانيا كخصم رئيسي في مستعمرتها الهند عبر تحريض المسلمين هناك للثورة عليها، وأهمية الدولة العثمانية كجسر تستطيع أن تعبر عليه ألمانيا للوصول إلى مصر وقطع اتصال بريطانيا البحري مع القارة الهندية عبر قناة السويس، أو تهديد الهند براً عبر السلطنة وفارس وأفغانستان. كما قررت ألمانيا أن تستخدم

Lothar Rathmann, Stossrichtung Nahost 1914 – 1918, Berlin (Ost) 1963, pp. 118 – 119. 28

Fischer, pp. 146 – 148. 29

Ulrich Gehrke, Persien in der deutschen Orientpolitik während des Ersten Weltkrieges, 1.1, Stuttgart n.d., pp. 54 – 56. 30

Faligot/Kauffer, pp. 29 – 30; Hagen, pp. 37f.; Ulrich Gehrke, Persien, pp. 54 – 56. 31

George Lenceowski, The Middle East in World Affairs, Ithaca 1952, p. 39; Ulrich Trumpener, Germany and the Ottoman Empire 1914-1918, Princeton/New Jersey 1968, p. 117. 32

أعلن الجهاد من قبل الدولة العثمانية في 7 تشرين الثاني 1914 من خلال خمس فتاوى أصدرها شيخ الإسلام خيري بك على شكل أسئلة وجهت إليه. ورأت الفتاوى أن محاربة السلطنة من قبل المسلمين الخاضعين لدول الأعداء أو إلحاق الأذى بالدولتين الألمانية والنمساوية هو "إثم عظيم"، Martin Hartmann, "Islampolitik", Koloniale Rundschau 11-12(1914), pp. 588-590 Hagen, pp. 3-4; in: Geoffery Lewis, "The Ottoman Proclamation of Jihad in 1914", in: The Islamic Quarterly (London), 19, 3-4 (1975), pp. 157-163. 33

Galli, p. 29. 33

أيضاً السلاح ذاته، أي تحريض المسلمين على الثورة، ضد فرنسا في مستعمراتها في شمال إفريقيا، وروسيا في القوقاز، هذا فضلاً عن جعل استانبول تقفل الممرات في وجه دول الوفاق الودي، وخصوصاً روسيا.³⁴ إضافة إلى ذلك، وضعت ألمانيا في مخططاتها استخدام الجيش العثماني في مسرح القتال في أوروبا،³⁵ وضد روسيا في القوقاز، وبريطانيا في الهند، وأن يقوم العثمانيون بمهاجمة مصر أيضاً.³⁶ وكتب المستشرق أرنست ياكه في 20 آب 1914، بأن ما تتوقعه ألمانيا من الدولة العثمانية هو الإمساك بروسيا براً وبحراً عبر القضاء على الأسطول الروسي في البحر الأسود ومهاجمتها في مناطقها الجنوبية ذات الأهمية الاقتصادية.³⁷ ومن ناحيته، اقترح آرثور تسيمرنر (Arthur Zimmermann)، مدير عام وزارة الخارجية الألمانية، بتاريخ 25 آب 1914 إرسال مبعوثين إلى السودان والحبشة للتحريض من هناك الشعب والجيش المصريين على الثورة.³⁸ كما وضع الألمان خطاً لنسف قناة السويس ومراكز إرشاد السفن ومنشآت المياه ومحطات البرق والجسور الحديدية والمرافئ في السويس وبور سعيد والإسكندرية بغية تعطيل استخدام القناة على البريطانيين.³⁹

وفي إطار المخططات الألمانية لطرد البريطانيين من مصر، شكلت سورية وفلسطين أهمية استراتيجية بالنسبة للهجوم على السويس. فبين إعلان الحرب في مطلع آب 1914 وانضمام السلطنة إليها في تشرين الثاني من العام نفسه، قامت ألمانيا، استعداداً للحملة العثمانية على السويس، بإرسال الذخيرة والأسلحة إلى غزة ويافا على متن سفن ألمانية أفرغت حمولتها في بيروت.⁴⁰ وعلى المستوى نفسه تقريباً، شكل العراق كحقل للتنافس الألماني - البريطاني أهمية قصوى بالنسبة لألمانيا، وذلك بسبب موقعه الجيو - سياسي على الخليج حيث لا منازع لهيمنة بريطانيا ومواصلاتها الاستراتيجية مع الهند، هذا بالإضافة إلى حجم استثمارات ألمانيا الواسعة في بلاد ما بين النهرين.⁴¹ كما نشطت الدعاية الألمانية في التقرب إلى الحركة الصهيونية وكسب عطفها لمصلحة دول الوسط.⁴²

³⁴ Fritz Fischer, *Griff nach der Weltmacht.*, pp. 140 –141.

³⁵ بعد عام 1917، خاضت الجيوش العثمانية القتال مع دول الوسط في الجبهة الشرقية، غاليسيا ورومانيا.

³⁶ Rathmann, op. cit., pp. 116 –118. كما هو معروف، فقد فشلت الحملتان العثمانيتان على مصر عام

1915 و1916. وبعد عام 1917، تحول البريطانيون وحلفاؤهم العرب في الجزيرة العربية إلى الهجوم على

فلسطين. أما بالنسبة إلى جبهة القوقاز، فقد الحق الروس هزائم كبيرة بالعثمانيين بين عامي 1914 و1917.

راجع في هذا الخصوص: Yapp, pp. 272 –274.

³⁷ Rathmann, p. 82.

³⁸ Rathmann, p. 121.

³⁹ Fischer, pp. 149 –150. ويذكر المؤرخ المصري وجيه عبد الصادق عتيق، دراسات في تاريخ مصر

الحديث في ضوء الوثائق الألمانية، القاهرة 1999، ص 59 –60 أن الألمان حاولوا بالفعل إغراق إحدى السفن

التجارية في القناة بعد تفجيرها لتعطيل الملاحة. لكن هذه الخطة كشفت في اللحظة الأخيرة.

⁴⁰ Edwin Pears, "Turkey, Germany and the War", in: *The Contemporary Review* 107

(1915), pp. 286 – 287

⁴¹ ل.ن. كوتلوف، ثورة العشرين الوطنية التحريرية في العراق، تعريب عبد الواحد كرم، بيروت/بغداد 1975، ص

61 –64.

⁴² تم ذلك من خلال إعلان ألمانيا عن حمايتها للمستوطنات اليهودية في فلسطين ضد سياسة جمال باشا. فاستحدثت

دائرة في وزارة الخارجية لرعاية الشؤون اليهودية. وبعد "تصريح بلفور" في تشرين الأول 1917، وجدت

ألمانيا نفسها مضطرة لمنافسة عدوتها بريطانيا، وإصدار وعد بلفور "ألماني"، بعدما أبدت الحكومة العثمانية عن

عزمها على إعادة النظر بموقفها من المشاريع الصهيونية في فلسطين "بصورة تحقق آمانيهم". فأعلنت برلين

عن تأييدها هجرة يهودية غير مقيدة إلى فلسطين وقيام حكم ذاتي.

وفي الوقت الذي كان الألمان يعملون فيه على استقطاب الإسلام وجعله أدواتهم لمحاربة دول الوفاق الودي، كانوا يخططون أيضاً من أجل المكاسب الاقتصادية التي سيجنونها من المنطقة بعد انتهاء الحرب، واعتقدوا أن خروجهم منتصرين من الصراع الدولي، سوف يجعل من وسط أوروبا منطقة خاضعة لاقتصادهم ورأسمالهم، على أن تُلحق بها منطقة الشرق الأدنى.⁴³ وتوقع أحد المستشرقين الألمان إمكانية أن تسيطر بلاده على المنطقة من بحر الشمال حتى الخليج الفارسي، فيما تخيل ألماني ثانٍ من رواد حركة الاستعمار وصول هيمنة بلاده حتى جنوب إفريقيا عبر مصر، التي ستلحق بدورها بمناطق الاستعمار الألمانية. وأمل ألماني ثالث أن تتحول المستعمرات الألمانية في آسيا الصغرى إلى "دولة داخل دولة".⁴⁴

هكذا، تمكنت ألمانيا إذاً بفضل خطابها السياسي الداعم للإسلام وتطور علاقاتها بالدولة العثمانية في مختلف المجالات التجارية والاقتصادية والعسكرية وإعلانها عن سياسة للحفاظ على سلامتها وبالتالي الابتعاد عن الاستعمار المباشر تجاه ممتلكاتها، في أن تصبح الدولة المفضلة لدى العثمانيين ومصدر أمل للمسلمين في التحرر من الاستعمار. لقد كان موقف ألمانيا هذا من مصير السلطنة أحد الأسباب وراء انجرار جماعة الاتحاد والترقي، وفي مقدمهم وزير الحربية أنور باشا، إلى جانب ألمانيا. يُضاف إلى ذلك، تخوف القيادة العثمانية من توسع روسيا على حساب السلطنة، أو قيام دول الوفاق الودي بتقاسم بلادهم في حال انتصارها في الحرب. واعتقد الاتحاديون أن انتصار ألمانيا يحمي السلطنة من خطر التقسيم ويمكنها بالتالي من أن تستعيد مكانتها الدولية وأجزاء من ولاياتها التي خسرتها، وخصوصاً تلك التي استولت عليها روسيا،⁴⁵ بالإضافة إلى مصر. واعتقد العثمانيون بإمكانية إعادة فرض سلطانها على المسلمين وعودة دولتهم مجدداً "سيدة للشرق".⁴⁶ كما توقعوا أن تغير نتائج الحرب العالمية الكثير مما خسروه سياسياً على الساحة الدولية، وأن يُعاد تقوية الدولة اقتصادياً وتحديثها. وفي هذا المعنى، قال رئيس البرلمان العثماني حول تحالف بلاده مع ألمانيا: "إننا سوف ندافع في المستقبل مع الألمان عن الحضارة وحرية الغرب والشرق، وليس في ساحة القتال فحسب، بل أيضاً في مجالات الاقتصاد وتنظيم الإدارة يكون لنا التفوق وبفضلهم نكون المتحالفين المنتصرين".⁴⁷

حول العلاقات الألمانية الصهيونية، أنظر:

Klaus Polkehn, "Zionism and Kaiser Wilhelm", in: *Journal of Palestine Studies* IV, 2(1975), p. 84, 85, 87; David Yisraeli, "Germany and Zionsism", in: Jehuda L. Wallah ed.

Germany and the Middle East 1835 –1939. Jahrbuch des Instituts für Deutsche Geschichte, Beiheft I, Tel-Aviv 1975, p. 144; Isaiah Friedmann, Germany, Turkey, and Zionism 1897 – 1918, Oxford 1977. pp. 192, 219 –220, 228;

وعلي محافظة، العلاقات الألمانية – الفلسطينية من إنشاء مطرانية القدس البروتستانتية وحتى الحرب العالمية الثاني 1841 –1945، بيروت 1981، ص 160 - 179.

Rathmann, p. 109. ⁴³

Rathmann, op. cit., pp. 35 – 48. ⁴⁴

David Fromkin, A Peace to End all Peace. Creating the Modern Middle East 1914 – 1922, London 1989, p. 66. ⁴⁵

⁴⁶ لطيفة محمد سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى 1914 – 1918، القاهرة 1984، ص 15.

⁴⁷ نقلاً عن: Galli, p. 17.

(2) الدعاية الألمانية: النشاط المؤسسي والتفتيات

إذا كان الجهاد الإسلامي هو من صنع ألمانيا، فالواقع أن مخططات ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى لبث الدعاية وتحريض العرب والمسلمين على الثورة ضد دول الوفاق الودي وبالتالي أشغال قواتهم في قمع تلك الثورات، كانت أولاً وأخيراً من صنع المستشرق أوبنهايم. وقد حظيت مسألة الدعاية بين المسلمين على موافقة القيادة الألمانية. فعشية الحرب (31 تموز 1914)، قال رئيس الوزراء الألماني هولفيغ بتمان: "إن على ألمانيا ألا تحارب سلاح العدو فحسب، وإنما عليها أن تصد أيضاً دعايته الكاذبة حول ألمانيا والنظرة الخاطئة التي تُعطى عنها". فطالب القيام بدعاية في الخارج وطبع المنشورات وتوزيعها.⁴⁸

انطلاقاً من هذه الرؤية، ظهرت إلى الوجود في برلين عام 1915 مؤسسة هدفها الإشراف على الدعاية الألمانية في البلدان الشرقية والإسلامية بشكل خاص، وهي "وكالة أخبار الشرق" (Nachrichtenstelle für den Orient) برئاسة أوبنهايم وإشراف وزارة الخارجية الألمانية والقسم السياسي في قيادة الأركان بشخص رودولف نادولني Rudolf Nadolny⁴⁹. سبق ذلك بأشهر قليلة قيام أوبنهايم وعدد من المستشرقين والخبراء بنشاط دعائي متواضع لألمانيا ضمن خمس دوائر، وهي: الصحفية والتركية والعربية والهندية والروسية. وبعد اتساع نطاق عمل الوكالة خلال عامي 915 و1916، أضيفت إليها دائرتان وهما: الدائرة الفارسية والدائرة التركية - القانونية. وألحقت بكل هذه الدوائر أقساماً للتحرير وأخرى لإصدار الصحف. أما لناحية عدد الألمان العاملين في الوكالة في شتاء 1915/1914، فبلغ اثنتا عشر من المستشرقين والموظفين القنصلين والتجار والمبشرين. ثم ارتفع العدد إلى تسعة وعشرين بعد ذلك التاريخ، في حين وصل عدد الشخصيات الشرقية العاملة مع الوكالة في برلين إلى عشرة أشخاص.⁵⁰

أما عن أنشطة الوكالة، فحُصرت بالدعاية في الدولة العثمانية وفي البلدان الإسلامية، بغض النظر عن الخدمة الصحفية التي كانت تتولاها السفارة الألمانية في العاصمة استانبول. وحددت مهام المؤسسة بالتصدي لدعاية العدو والقيام بدعاية مضادة تؤدي إلى تحريض المسلمين في العالم على الثورة ضد دول الوفاق الودي من خلال مبعوثين ألمان إلى تلك البلدان، وخصوصاً إلى الهند ومصر وشمال إفريقيا،⁵¹ والحصول على المعلومات الاقتصادية والسياسية والعسكرية في تلك المناطق وفي الدول المحايدة وإقناع شعوبها وحكوماتها بوجهة النظر الألمانية.⁵² كما يندرج تحت هذا العنوان، تشكيك المسلمين بأهداف دول الوفاق الودي من جراء الحرب.

Farah, pp. 235 –236. 48

Peter Heine, "Al-Gihad – Eine deutsche Propagandazeitung in I. Weltkrieg", in: 49
Die Welt des Islams, N.S. XX, 3-4 (1980). P. 197.

50 PAAA/Deutschland 126g adh1, R 1535, vol. 26, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient 1914 –1918, pp. 1-4.

51 حول هذا الموضوع، أنظر ملفات الأرشيف السياسي لوزارة الخارجية الألمانية في برلين المتعلقة بالحرب العالمية الأولى وكيفية إثارة المسلمين ضد دول الوفاق الودي: Der Weltkrieg Nr. 11 R 20936f.,
Unternehmungen und Aufwiegelungen gegen unsere Feinde.

Heine, p. 197. 52

ومن جهته، حدد قنصل ألمانيا في دمشق ثلاث مهام تقع على عاتق الدعاية الألمانية، وخصوصاً في مجال اختصاص قنصليته، وهي: 1- إقناع السكان المحليين بقوة ألمانيا الفعلية، 2- تعريف هؤلاء السكان بالمنافع التي سيجنونها من جراء الانحياز إلى جانب ألمانيا، و3- الحسنة التي سيحصل عليها السكان المحليون في حال الاشتراك في الحرب ضد دول الوفاق الودي.⁵³

جدول رقم (1) البعثات الألمانية لتحريض العالم الإسلامي على الثورة ضد دول الوفاق الودي⁵⁴

المبعوثون/الناشطون	المهنة الأساسية	الوظيفة خلال 1914 1918	البلدان التي زارها
Baron Max von Oppenheim	عالم آثار ودبلوماسي	رئيس دائرة الاستعلام العسكري	مصر والعراق وسورية والدولة العثمانية والجزائر
Col. Hermann Frobenius	ضابط		العراق وفارس
Johann von Berntorff	دبلوماسي	سفير في واشنطن ثم في استانبول	مصر
Fritz von Papen	ضابط	الولايات المتحدة	الدولة العثمانية
Dr. Konrad Preusser	طبيب وعالم آثار		العراق ومصر والدولة العثمانية
Oskar Ritter von Niedermayer	عالم جيولوجيا	رئيس بعثة في طهران	العراق وفارس
Wilhelm Wassmuss	دبلوماسي	تنظيم فدائيين في فارس	العراق وفارس وكرديستان
Werner-Otto von Hentig	دبلوماسي	بعثة إلى فارس وأفغانستان	أفغانستان وفارس
Fritz Grobba	محام ودبلوماسي	بعثة إلى الجزيرة العربية	دمشق وفلسطين
Leo Frobenius	عالم آثار	بعثة إلى الجزائر	الجزائر وتونس والسودان
Hans von Kalle	ضابط	بعثات إلى المغرب	طنجة والمغرب وإسبانيا

وكان على الوكالة أن تقوم أيضاً بتحرير الأنباء التي ترددها من برلين، ومن ثم نقلها إلى المسلمين باللغات العربية والعثمانية والفارسية والهندوسية والأوردو والسواحلي ولغات مسلمي القرم الخاضعين لروسيا. ومن أجل ذلك، جرى استخدام مختصين ألمان وشرقيين لترجمة هذه الأخبار والمواد الدعائية والوثائق الهامة إلى اللغات الشرقية. واضطلعت الوكالة كذلك بمراقبة الصحافة المحلية والدولية والأحداث المحلية والبريد الوارد من الشرق إلى الوزارات الألمانية، وتقديم ملخصات لافتتاحيات الصحف العثمانية. كما عملت في الوقت نفسه على إنشاء مكتبة شرقية عن الحرب تتضمن صحفاً وكتيبات دعائية عثمانية وشرقية.⁵⁵

ولم تستثن الوكالة من مهامها عرض الأفلام الدعائية وتدريب اللغة الألمانية في صالاتها. واعتبر أوبنهايم أن المدرسين الألمان الذين يتولون تعليم اللغة الألمانية في الولايات العثمانية هم أكبر عامل مساعد للدعاية الألمانية في المجالين السياسي والاقتصادي. ورأى أن يتولى الدبلوماسيون والقناصل الألمان توزيع مواد الدعاية هذه في المشرق والمغرب العربيين، على أن تعاونهم في ذلك بالنسبة للمشرق العربي شركة خط حديد بغداد والمؤسسات المصرفية والتجارية والثقافية الألمانية، ومؤسسات أوروددي باك (Orosdi Back) النمساوية بفروعها في الأستانة

⁵³ PAAA/WK Nr. 11g, R21128, vol. 6, A 5037, Hardegg to Wagenheim, Damascus Dec. 21st 1914.

⁵⁴ نقلاً عن: Faligot/Kaufer, Le Croissant et la croix gammee, p. 36.

⁵⁵ PAAA/Deutschland 126g, adh1, Tätigkeit der Nachtstellen für den Orient, pp.5-6.

وحلب وبيروت والقاهرة.⁵⁶ ولم يستثن أوبنهايم من مخططاته الطرق الصوفية ومكانة مكة الدينية كمركز للحج. فاعتبر أنه عن طريقهما يمكن تحريض العالم الإسلامي ضد بريطانيا وفرنسا.⁵⁷ ومن هنا، أولى الألمان اهتماماً بنشر الدعاية بين الحجيج الذي كان ينطلق من دمشق وبواسطة سكة حديد حيفا – معان – المدينة المنورة،⁵⁸ أو دس عملاء هنود مسلمين بين الحجاج في الأماكن المقدسة لتوزيع المنشورات أو التأثير عليهم.⁵⁹

بناءً عليه، سار العمل في "وكالة أخبار الشرق" في أربعة مجالات رئيسية: جبهات القتال مع العدو التي يحارب فيها جنود مسلمون حلفاء لألمانيا، وذلك عبر التشهير بالعدو بأنه يحارب جنود شرقيين ومسلمين؛ التأثير النفسي على أسرى الحرب المسلمين في المعتقلات الألمانية لجعلهم يلتحقون بالجيوش العثمانية؛ الاهتمام بنشر الدعاية في الدول المحايدة وفي البلدان الإسلامية الحليفة لألمانيا وإقامة علاقات شخصية مع دوائر شرقية في ألمانيا والدول المحايدة؛ وأخيراً الدعاية في ألمانيا نفسها، من خلال التبرير للرأي العام الألماني حول أسباب التحالف مع دولة إسلامية، وهي الدولة العثمانية.⁶⁰

وللاضطلاع بهذا العمل الواسع، استعان أوبنهايم بفريق من المستشرقين (Martin Kkarl إميل شابنغر فون شوونغن (Karl Emil Schabinger von Schowingen)، وهربرت مولر (Herbert. Müller). وقد توالى على إدارة الوكالة بعد أوبنهايم على التوالي كل من شابنغر ومتفوخ. كما استقطب أوبنهايم عدداً كبيراً من الشخصيات السياسية والفكرية الوطنية العربية والإسلامية والصوفية المعروفة، وذلك بهدف نشر المؤلفات والإشراف على إصدار الصحف والمجلات أو التحرير فيها وإلقاء الخطب والترويج لما هو في مصلحة بلاده.

وعلى الصعيد الإعلامي، طُلب إلى الصحافة الألمانية توطيد صلاتها بالصحف المحلية الموجودة بكثرة في الآستانة وتزويدها بالأخبار عن مجريات الحرب، وأن تأخذ في عين الاعتبار في تقاريرها التقاليد الشرقية وحساسيات الشرقيين، وأن تتجنب استخدام العبارات المسيئة للمسلمين.⁶¹ كما طُلب إليها الإسهاب في الأخبار حول الانتفاضات في الهند وطموحات الشعب

⁵⁶ PAAA Akten betr. den Krieg 1914. Unternehmen, ungen und Aufwiegelungen gegen unser Feinde. Allgemeines vom Juli 1914 – 30 Nov. 1914, Bd. 1, Der Weltkrieg R 20936, A 17810, No. 11, Oppenheim to Bethman-Hollweg, No. 1, Berlin, Aug. 18th 1914.

⁵⁷ PAAA/WK, Nr. 11g, R 20936, Unternehmen und Aufwiegelungen gegen unsere Feinde. Allgemeines, Nr. 11, vol. 1, Oppenheim to Bethmann-Hollweg, No.1, A 17811 No. 2, , Berlin Aug. 18th , 1914.

⁵⁸ PAAA/WK 11g, R 21124, E. Schäffer to Mathieu, A 22364, Sept. 1914.

⁵⁹ PAAA/WK Nr. 11g, R21126, vol. 4, Wagenheim to Bethmann Hollweg, A 33830, Nr. 291, Pera Nov. 30th , 1914.

⁶⁰ Farah, p. 239.

⁶¹ ك: "الهنود الدمويون" و"المغاربة السفاحون"، و"الشياطين السود" للدلالة على الأفارقة الزوج. أنظر:

Farah, p. 240

الهندي وبقية البلدان الإسلامية.⁶² وجرى أيضاً فصل القسم الفرنسي عن القسم الألماني في جريدة (Osmanischer Lloyd)، التي تأسست في الآستانة عام 1908 لمجابهة دعاية دول الوفاق الودي في صحيفتين منفصلتين وتمويل من تجار وصناعيين ألمان، وذلك بهدف إيصال آراء ألمانيا إلى المثقفين العرب والأتراك. وعملت هذه الجريدة على تزويد الوكالات العربية والصحف العربية المحلية بالأخبار.⁶³ كما قامت "وكالة أخبار الشرق" كذلك بإنشاء صحف ونشرات خاصة بها باللغة الألمانية منذ نيسان 1915، وأهمها: Korrespondenzblatt der Nachrichtenstelle für den Orient و Der Neue Orient و Stimmen des Orients ومجلة "الجهاد" (El-Dschihad) الأسبوعية باللغات الشرقية. وكان الهدف من الصحف الثلاث الأولى هو نقل المعلومات الصحيحة عن الشرق والإسلام إلى الرأي العام الألماني، فيما كانت النشرة الأخيرة للتأثير على الأسرى المسلمين في المعتقلات الألمانية كي يعاد تجنيدهم والمحاربة في الجيش العثماني.

كذلك، دعمت الوكالة الصحف الإسلامية التي تأسست في برلين، ومنها صحيفة " Die Islamische Welt"، وصحفاً عربية كـ "العهد" و"الرأي العام" و"الشرق" و"الاتحاد العثماني". كما كانت "جورنال دو بيروت" (Journal de Beyrouth) لصاحبها جرجي حرفوش تؤيد السياسة الألمانية وتحصل على دعم مالي من البنك الألماني وتنشط كوكالة للإشراف على الاشتراكات والمبيع في الطرقات.⁶⁴ وقد وصف قنصل ألمانيا في بيروت هذه الصحيفة بأنها "مذافع موثوق فيه عن المصالح العثمانية والألمانية"، تعمل على نشر أخبار الحرب نقلاً عن المصادر الألمانية ومقتطفات من الصحافة الألمانية.⁶⁵ وفي الوقت نفسه، حصلت جريدة "أبائيل" البيروتية الأسبوعية لصاحبها محمد الحبال على دعم ألماني من أجل إعادة إصدارها في دمشق. وعملت القنصلية الألمانية في حيفا على تقديم دعمها المالي لصحيفة "المهاجر" التي كانت تصدر لمصلحة الجالية الجزائرية في دمشق. كما تقربت القنصلية المذكورة إلى محمد كرد علي صاحب "المقتبس"، وعملت على نقل تحرير جريدة "المفيد" لعبد الغني العريسي من بيروت إلى دمشق بسبب قوة تأثيرهما على الرأي العام.⁶⁶

ومن نشاطات الوكالة في الدولة العثمانية تفعيل عمل "الرابطة الألمانية – التركية" (Deutsch-Türkische Vereinigung) التي كانت تعمل منذ إنشائها في شباط 1914 على تدعيم

62 PAAA/WK, Nr 11g, R 20937, Akten betreffend den Krieg 1914: Unternehmungen und Aufwiegelung gegen unsere Feinde, vol. 2, Denkschrift Oppenheim: "Die Revolutionierung des islamischen Gebieten unserer Feinde.

63 حول تأسيس جريدة اللويد، أنظر: Farah, pp. 85 – 102. وحول فصلها إلى جريدتين، المرجع نفسه، ص 261 – 268.

64 Jacobsen, pp. 98-99.

65 PAAA/WK Nr. 11g, R 21128, vol. 6, A 5037, Mutius to Wagenheim, No. 3295, Beirut Dec. 9th, 1914.

66 PAAA/WK Nr. 11g, R 21126, vol. A 35153, No. 138, Löytved Hardegg to Bethmann Hollweg, Haifa Nov. 26th, 1914.

وتعزيز العلاقات الثقافية بين ألمانيا والسلطنة.⁶⁷ وفي نهاية عام 1915، أُفتتح "المركز الاقتصادي الألماني - العثماني" (Deutsch-Türkische Wirtschaftszentrale). وفي نيسان 1917، دُشن في الأستانة "بيت الصداقة الألمانية - التركية" (Haus der deutsch-türkischen Freundschaft) بحضور شخصيات دبلوماسية ألمانية وعثمانية.⁶⁸ وجاء تفعيل هذه المؤسسات الثقافية والاقتصادية بعد نصيحة وجهها أوبنهايم إلى المسؤولين الألمان بضرورة الالتفات إلى الشأن الاقتصادي والثقافي في الدولة العثمانية، وذلك بعدما حقق النفوذ الألماني العسكري في الجيش العثماني عبر المستشارين والخبراء الألمان مكانة مرموقة.⁶⁹ وفي هذا المعنى، اقترحت القنصلية الألمانية في دمشق، بسبب عدم وجود أية مدرسة ألمانية في تلك المدينة، فتح مدارس ألمانية بكثرة فيها من أجل التعويض عن إغلاق المدارس الفرنسية والبريطانية والروسية.⁷⁰

أما عن نشاطات الوكالة في ألمانيا، فأهمها إنشاء "معسكر الهلال" (Halbmondlager) في ناحية فونسدورف (Wünsdorf) ببرلين في تموز 1915، و"معسكر فاينبرغر" (Weinbergerlager) في منطقة تزوسن (Zossen) قرب مدينة بوتسدام. وضم "معسكر الهلال" مسجداً بمئذنة خشبية ارتفاعها 23 متراً (أنظر ملحق رقم 1). وكانت الغاية من المعسكرين هي إيواء الأسرى المسلمين الذين كانوا يحاربون في جيوش دول الوفاق الودي ووقعوا في أيدي القوات الألمانية، وخصوصاً أولئك من الهنود والعرب في شمال إفريقيا أو المسلمين من التتار، ومعاملتهم معاملة حسنة بإشراف ضباط يلمون باللغات الشرقية، والسماح لهم كذلك بممارسة شعائرهم الدينية، وفي مقدمها صلاة الجمعة.⁷¹ وكان الهدف من وراء ذلك، هو نشر الدعاية حول مواقف ألمانيا المتسامحة والحصول على استحسان العالم الإسلامي وإعطاء المعتقلين المسلمين الانطباع بأنهم ليسوا أسرى وإنما "ضيوفاً" على ألمانيا وبالتالي إقناعهم بالانخراط في الجيش العثماني ضد دول الوفاق الودي.⁷²

لقد حُدد الهدف من إنشاء معسكري الاعتقال على أنه من أجل "استغلال الأسرى المسلمين والهنود لأغراضنا" (ألمانيا) السياسية⁷³. وهذه "الأغراض السياسية" عبرت عنها وزارة الخارجية الألمانية في مذكرة رفعتها إلى الإمبراطور وليم الثاني، وجاءت على الشكل التالي: "من أجل التعبير عن علاقات الود المعلنّة بين الدولة الألمانية والشعوب الإسلامية والتي تحظى على رعاية جلالتم، ومن أجل التأثير على المحاربين المسلمين في جانب العدو، فسوف تتم معاملة الأسرى

67 Max Freiherr von Oppenheim, Die Nachrichtensaal-Organisation und die wirtschaftliche Propaganda in der Türkei, ihre Übernahme durch den Deutschen Überseedienst, Streng vertraulich!, Berlin 1917, pp. 6-7.

68 Norddeutsche Allgemeinen Zeitung, No. 118, 30. April, 1917.

69 Farah, p. 272.

70 PAAA/WK Nr. 11g, R 21126, vol. A 35153, No. 138, Löytved Hardeggtto Bethmann Hollweg, Haifa Nov. 26th, 1914.

71 Müller, p. 219.

72 Mü ller, p. 219 ؛ أندّه/هاينه، مرجع سبق ذكره، ص 211.

73 نقلًا عن: Gerhard Höpp, Arabische und islamische Periodika in Berlin und Brandenburg, Berlin 1994, p. 9.

المسلمين (الذين يقعون في يد الجيش الألماني) معاملة مميزة. وسوف يتمتع هؤلاء بكل الحرية تحت إشراف ضباط منتقون".⁷⁴ وقد ضم معسكرا الاعتقال في عام 1916 نحو 15 ألفاً من الأسرى المسلمين.⁷⁵ إشارة إلى أن بريطانيا اتبعت الأسلوب الألماني نفسه، وذلك عبر إطلاق سراح الأسرى العرب لديها، وخصوصاً الضباط العراقيين الذين خدموا في الجيش العثماني، كي يحاربوا العثمانيين مع القوات العربية التابعة للشرية حسين.⁷⁶

ومن أجل تفعيل الدعاية بين الأسرى المسلمين، جاء إنشاء مجلة "الجهاد". وتألفت هيئة التحرير فيها من فريق من المستشرقين الألمان، وهم: هريبرت مولر، وعالم الهنديات هلموت فون غلاسنباب (Helmuth von Glasenapp) والبارون رانتزاو (Baron Rantzau) والبروفسور شباتز (Spatz). كما استعان الألمان بعدد من الشخصيات الإسلامية للتحرير في المجلة المذكورة، ومنهم عبد العزيز جاويش (1876- 1929) وصالح الشريف التونسي (1869- 1920) ومحمد خضر حسين (1876- 1958) ومنصور رفعت (1883- 1926) وعبد الرشيد إبراهيم (1835- 1944) وغيرهم.⁷⁷ وكان بعض هؤلاء يزور معسكري الاعتقال من وقت إلى آخر لإلقاء المحاضرات والخطب على الأسرى.

جدول رقم (2) أهم الشخصيات العربية التي تعاملت مع المؤسسات والأجهزة الألمانية خلال الحرب العالمية الأولى⁷⁸

الاسم	الجنسية	الولادة والوفاة	النشاط	ملاحظة
أبو الفضل، سعيد مأمون	من الجزيرة العربية	1891 - ؟	وكالة أخبار الشرق وضابط في الجيش الألماني في البلقان	نشر كتاباً وعدة مقالات في ألمانيا حول الإسلام
أرسلان، شكيب	لبناني	1869 - 1946	نشاط سياسي في ألمانيا عامي 1917 و1918	أصدر حوالي 40 مقالاً في ألمانيا عن علاقة الشرق والمسلمين بالحرب
باش حانيا، محمد	تونسي	1881 - 1920	تعاون مع المخابرات الألمانية	وضع مؤلفات بالفرنسية حول تونس والسياسة الفرنسية تجاهها
بوكابويه، رباح (الحاج عبد الله)	جزائري	1875 - ؟	عمل مع وكالة أخبار الشرق في برلين	فر من الجيش الفرنسي والتحق بالألمان - نشر دراسات عدة عن الجهاد في المغرب العربي
التونسي، صالح الشريف	جزائري	1869 - 1920	عمل مع وكالة أخبار الشرق	أسس لجنة من أجل استقلال تونس والجزائر
جاويش، عبد العزيز، حمزة، عبد الملك	مصري	1876 - 1929	عمل مع وكالة أخبار الشرق	أحد مؤسسي مجلة العالم الإسلامي - برلين
الخضر، محمد حسين	تونسي	1876 - 1958	عمل مع وكالة أخبار الشرق	عضو في الحزب الوطني. عُرف بابن مروان
رفعت، منصور مصطفى	مصري	1883 - 1926	عمل مع وكالة أخبار الشرق	كتب مقالات للتأثير على الأسرى المسلمين في قبضة ألمانيا
				انشق عن الحزب الوطني عام 1918، وله العديد من الدراسات والمقالات

⁷⁴ نقلًا عن: Iskander Giljazov, "Die Muslime Russlands in Deutschland während der Weltkriege als Subjekte und Objekte der Grossmachtspolitik", in: Gerhard Höpp/Brigitte Reinwald (Hgg.), *Fremdeinsätze. Afrikaner und Asiaten in europäischen Kriegen, 1914-1945*, Berlin 2000, p. 144.

⁷⁵ Gerhard Höpp, "Die Wünsdorfer Moschee: Eine Episode islamischen Lebens in Deutschland, 1915 - 1930", in: *Die Welt des Islams* 36, 2(1996), 204 - 208.

⁷⁶ زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سورية ولبنان، بيروت 1971، ص 71.

⁷⁷ Höpp, Arabische und islamische Periodika, p. 9.

⁷⁸ المرجع: Gerhard Höpp, "Texte aus der Fremde. Arabische politische Publizistik in Deutschland, 1896 - 1945. Eine Bibliographie", Berlin 2000. العرب. تنسيق المعلومات وجدولتها من عمل المؤلف.

عباس حلمي (الثاني)	خديوي مصر	1874 - 1944	عمل مع الحكومة الألمانية	حاول استغلال الألمان والبريطانيين من أجل استعادة منصبه
عبد القادر، أحمد مختار	جزائري	1857 - 1918	وكالة أخبار الشرق	حفيد عبد القادر الجزائري
العتابي، السيد محمد	مغربي	؟؟؟	مستشار في ألمانيا عام 1916 للشؤون المغربية	نشر مقالات حول الاستعمار الفرنسي في المغرب - تخوف من نوايا ألمانيا تجاه المغرب
عزام، عبد الرحمن	مصري	1893 - 1976	عمل مع المخابرات الألمانية خلال عام 1918	كتب عن نضال الليبيين والحركات الصوفية هناك
العناني، علي أحمد	مصري	1886/1881 - 1940	عمل مع وكالة أخبار الشرق	عضو في الحزب الوطني
فريد، محمد	مصري	1868 - 1919	تعاون مع وكالة أخبار الشرق	رئيس الحزب الوطني بعد مصطفى كامل
فهمي، محمد	مصري	1880 - 1963	تعاون مع الألمان في سبيل استقلال مصر	نشر العديد من المؤلفات والدراسات حول القضية المصرية

وقامت استراتيجية الوكالة على تركيز الدعاية في آسيا الصغرى وسورية والعراق انطلاقاً من العاصمة العثمانية، وعلى المغرب الأقصى عبر قنوات دبلوماسية ألمانية في مدريد وبرشلونة.⁷⁹ وفيما يتعلق بالمغرب، وخصوصاً منطقة الاستعمار الإسباني في الريف، قامت الدعاية الألمانية بتحريض القبائل ضد فرنسا وتوزيع الأموال عليها.⁸⁰ أما في شأن مصر، فعين أوبنهايم مندوبين له في روما ونابولي وأثينا لجمع الأخبار عن أحوالها. كما قام بتشكيل قلمين للمخابرات في نابولي وبيروت وطرابلس (ليبيا) من أجل الاتصال بها ودفع شعبها للثورة في الوقت المناسب. كما جعل هناك شيفرة للاتصال بين الإسكندرية والأستانة وفيينا.⁸¹

ومن أجل الشق الآسيوي لعمل الوكالة، تأسست قاعة معلومات مركزية في الأستانة تدار من قبل السفارة الألمانية هناك، ويتفرع عنها مراكز وصلات أخبار في الولايات والمدن. وقد عملت القاعة المركزية على تحرير التقارير والأنباء التي تصلها من برلين عن مجريات الحرب وتزويد المراكز والصلات بها من أجل إعادة نشرها في الصحف المحلية، فضلاً عن عرض الأفلام الدعائية وتوزيع الصور عن المعارك والمناشير والكتيبات والمجلات المترجمة إلى 15 لغة إفريقية وآسيوية و9 لغات أوروبية. وبشكل عام، وصل عدد عناوين المنشورات التي أصدرتها الوكالة بين تشرين الأول عام 1914 وتموز عام 1918 إلى 1012 عنواناً، طبع منها أكثر من ثلاثة ملايين نسخة.⁸²

أما في ما يتعلق بتركيا الآسيوية، فبلغ حجم توزيع مواد الدعاية خلال عام 1915 ما بين 500 و3000 من كل قطعة. وما لبث أن ارتفع هذا الرقم إلى 10 آلاف نسخة باللغة العثمانية و8 آلاف نسخة باللغة العربية. وكان أعلى رقم للتوزيع هو على التوالي في مدن حلب وبغداد وبيروت ودمشق والمدينة المنورة. واعتبر توزيع المنشورات بين الحجيج في الأماكن المقدسة مهم جداً للدعاية الألمانية، وذلك بسبب أهميتها الدينية للمسلمين. وحتى بعد انطلاق الثورة العربية الكبرى ضد الدولة العثمانية، ظلت الدعاية الألمانية قادرة على ما يبدو على التحرك في الجزيرة العربية.

⁷⁹ Walter B.Harris, France, Spain and the Rif, London 1927, pp. 59-60; Fischer 152 - 153;

⁸⁰ Walter B.Harris, France, Spain and the Rif, London 1927, pp. 59 -63.

⁸¹ لطيفة سالم، ص 347.

⁸² PAAA/ Deutschland 126g, adh1, R 1535, vol. 26, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient 1914 -918.

ويذكر دوبره أن منشوراً بالعربية اكتشف في خريف عام 1916 وتضمن اتهامات موجهة إلى فرنسا بأنها تسعى إلى تدمير الإسلام والأماكن المقدسة ومكة المكرمة ونقل الحجر الأسود إلى متحف اللوفر.⁸³

جدول رقم (3) النسب المئوية لتوزيع مواد الدعاية الألمانية في آسيا الصغرى والمشرق العربي⁸⁴

النسبة المئوية	المدينة	النسبة المئوية	المدينة
10	بيروت	4	استانبول
10	القدس	1	أضنه
7	الموصل	20.5	حلب
2	مناطق أخرى	20.5	بغداد
		25	دمشق والمدينة

وفي نيسان 1915، قام أوبنهايم بتكليف من وزارة الخارجية الألمانية برحلة إلى سورية استغرقت عدة شهور. وكانت الغاية من هذه الإقامة⁸⁵ مناقشة الدعاية الألمانية مع السفارة الألمانية في الأستانة، وتأمين اتصال آمن للمعلومات يبدأ من سورية وينتهي بأوروبا عبر الأستانة، واتصال آخر يربط ما بين سورية ومصر والسودان والمناطق الإفريقية الخاضعة للعدو، وتأمين اتصال ثالث بين سورية وفارس وأفغانستان والهند. كما تضمنت إقامة أوبنهايم دراسة الأوضاع السائدة في مصر عن قرب، وإنشاء مراكز أخبار في المدن السورية الكبرى تحت إشراف القنصليات الألمانية العاملة هناك، والتأثير على الرأي العام في سورية في وجه الدعاية التي يشنها العدو ضد ألمانيا، ومحاربة الدعاية المضادة، واستخدام الصحافة المحلية في سورية لأغراض ألمانيا، ودراسة إمكانية الاستفاد من الدعاية الألمانية في سورية بشأن الأسرى المسلمين في ألمانيا في سورية. أخيراً، أن يعمل أوبنهايم على إنشاء صحف جديدة، ومركز معلومات في الحجاز والمدن المقدسة، ودعم الحملة العثمانية المنشودة على الهند، والسهر على ترويح الأخبار عن قوة الاقتصاد الألماني بما يخدم مصالح ألمانيا، وتجنيب متصوفين وأئمة مساجد وأعيان وشيوخ عشائر، وكسب العملاء والناشطين.

ولزيادة التأثير في المسلمين، قامت أجهزة الدعاية بتوزيع النيشان التاجي من الدرجتين الثالثة والرابعة الذي يحمل اسم إمبراطور ألمانيا على كبار الشخصيات العربية والإسلامية الدينية والأمراء العرب.⁸⁶ كما كان فاغنهايم (Wagenheim)، سفير ألمانيا في الأستانة، يرشو بعض الزعامات العربية المحلية في بلاد الشام عندما كانت تتردد على السفارة لإعلان ولاءها لبلاده.⁸⁷

Dupre, p. 172. 83

Jacobsen, German Attempts, p. 98. 84

85 PAAA/WK, Nr. 11g, R 21130, vol. 8., A 19008, Saatssekretär des AA to the Consulates at Beirut and Jerusalem, Nr. 414, Berlin March 11th 1915. وتتضمن الرسالة

تقريراً بمهام أوبنهايم تحت عنوان – "Aufgaben der Mission des Kaiserlichen Minister Residenten Freiherrn von Oppenheim", Berlin March 14th 1915.

86 PAAA/WK, Nr. 11g, R 21144, Akten betreffend den Krieg 1914. Unternehmungen und Aufwiegungen in Ägypten, Syrien und Arabien., No. 1442, vol. 1, , A 2765, Wagenheim to AA, No. 1442, Pera Nov. 27th 1914.

87 عتيق، دراسات في تاريخ مصر الحديث ص 66، 106.

وحتى عام 1916، تمكن أوبنهايم من إنشاء 70 صالة للمعلومات ومكتب صحفي في الدولة العثمانية (أنظر ملحق رقم (2)). وكانت المراكز الرئيسية البعيدة عن السفارة الألمانية في استانبول تدار من قبل قناصل أو تجار ألمان ونمساويين أو أعضاء في حزب الاتحاد والترقي، وفي بعض الأحيان من قبل سكان محليين مثقفين. وقد روعي أن تؤسس المراكز والصالات في الأماكن المزدحمة في المدن قرب المحال الكبيرة والمشهورة. ومن الملفت، أن بعض هذه المراكز كان بمثابة غطاء لنشاط الجاسوسية الألمانية، كصالة "مقتطف الأخبار" في الجهة الشرقية من ساحة البرج في بيروت على سبيل المثال.⁸⁸ وبعد عام 1917، وضعت صالات المعلومات بإشراف "الهيئة الألمانية لما وراء البحار" (Die Deutsche Überseedienst) ويعاونها "جمعية التصوير الشمسي" (Die Lichtbildgesellschaft).⁸⁹

3) مضامين الدعاية الألمانية

هدفت الدعاية الألمانية، تقارير وكتب وكتيبات وصحف ومجلات ومناشير وصور فوتوغرافية وبطاقات بريدية، التي كانت ترسل إلى المراكز العربية والإسلامية للوكالة، فضلاً عن الرسائل المفتوحة من قيادات وطنية عربية وإسلامية إلى شخصيات سياسية دولية،⁹⁰ إلى إثارة العالمين الإسلامي والعربي ضد دول الوفاق. يُضاف إلى ذلك، اتصالات القناصل الألمان بالسكان المحليين⁹¹ والشخصيات القيادية والعسكرية والدينية والثقافية والإعلامية وبأعيان المدن لنشر الدعاية والمناشير وعرض الأفلام عن الحرب،⁹² وكذلك المحاضرات التي كان يلقيها المنفيون العرب والإسلاميون في ألمانيا على الألمان وعلى الأسرى المسلمين في معسكرات الاعتقال وفي الأعياد الإسلامية ببرلين.⁹³ واللافت، أن معظم مواد الدعاية التي كانت توزعها الأجهزة الألمانية لا تحمل توقيعاً، وتصاغ بأسلوب يعطي الانطباع بأن الدعوة إلى تأييد ألمانيا إنما تأتي بمبادرة من عرب ومسلمين. وفي كثير من الأحيان، كانت الرسائل والمقالات تحرر بأسماء مستعارة أو وهمية.

إن أبرز ما شددت عليه الدعاية الألمانية هما مسألتان: توطيد علاقات المسلمين بالسلطان العثماني كخليفة، والحصول على تأييد المسلمين ودعمهم لسياسة ألمانيا ودول الوسط. من هنا، ركزت هذه الدعاية على شرعية الخليفة العثماني وأحقية في الخلافة وحمائته لبيضة الإسلام،

⁸⁸ عزيز بك، سورية ولبنان في الحرب العالمية الأولى، ج3، لات، لام، ص 291 – 293.

⁸⁹ Max von Oppenheim, Die Nachrichtensaal-Organisation, p. 21.

⁹⁰ أسكويت، رئيس وزراء بريطانيا وسُلطان المغرب على سبيل المثال. أنظر: – pp. 194 Gottfried Hagen., pp. 197, 204 – 207.

وعلى كل حال، سنتطرق إلى المؤلفات التي صدرت عن الشخصيات العربية في إطار الدعاية لألمانيا عند الحديث عن المواقف العربية من الدعاية الألمانية.

⁹¹ مجالسة قنصل ألمانيا في دمشق للسكان في المقاهي والقيام بالدعاية لبلاده. راجع: Jacobsen, p.99.

⁹² PAAA/WK Nr. 11g, R 21128, vol. 6, A 5037, Hardegg to Wagenheim, Damascus Dec. 21st 1914.

⁹³ وخلال عام 1915، جرى في برلين الاحتفال بعيد الأضحى بحضور كبار الشخصيات المدنية والعسكرية الألمانية. وكتبت الصحف الألمانية في افتتاحياتها "إن الأمة الألمانية كلها تحتفل الأضحى مع الأتراك وليعش السلطان". نقلاً عن: Irmgard Farah, Die deutsche Pressepolitik, Beirut 1993, p.249.

وعلى أن الجامعة الإسلامية هي تضامن إسلامي بعيد عن التفرقة المذهبية بين السنة والشيعة، فيما الجهاد هو واجب على كل مسلم ولا يشكل خطراً على المسيحية.

ومن جهة أخرى، ركزت الدعاية الألمانية على أوامر الصداقة والود التي تجمع ما بين الألمان والمسلمين،⁹⁴ وعلى أخوة السلاح بين الجيشين الألماني والعثماني والتحالف المقدس بينهما.⁹⁵ وهدفت إلى إعطاء صورة مشرفة عن ألمانيا وأهدافها النبيلة من الحرب، وأنها تسعى إلى مساعدة العالم الإسلامي على الارتقاء في مرحلة ما بعد الحرب. كما لفتت الانتباه إلى مقبرة قرب قلعة حميدية في الدردنيل تجمع رفات الجنود الألمان والعثمانيين كدليل للمرة الأولى على وحدة الصليب والهلال،⁹⁶ وارتباط مصير كل من الدولتين الألمانية والعثمانية بالأخرى.⁹⁷

وللتأثير النفسي في المسلمين، شددت الدعاية على أن ألمانيا لم تستعمر أي بلد إسلامي منذ إعلان صداقتها للإسلام،⁹⁸ بل تعمل على العكس من ذلك بإخلاء لتحرير الشعوب الإسلامية، والحفاظ على علاقات حسنة بهم بعد الحرب. وحاولت الدعاية أن تعطي المسلمين الانطباع بأن تحالفهم مع ألمانيا ليس دون أساس، وإنما هو مع أقوى قوة في أوروبا لناحية مائة اقتصادها وماليتها وصناعاتها وثقافتها وبنائها التحتية، هذا فضلاً عن حسن تنظيم قواتها العسكرية وتضامن الشعب الألماني مع جيشه وقيادته.⁹⁹ وفي هذا المعنى، جرت طباعة كتيب "الحياة الاقتصادية في ألمانيا قبل الحرب وأثنائها" إلى خمس لغات شرقية.¹⁰⁰

جدول رقم (4) تفوق ألمانيا على أعدائها وفقاً للدعاية الألمانية¹⁰¹

Gottfried Galli, Dschihad. Der heilige Krieg des Islams und seine Bedeutung im Weltkrieg unter besonderer Berücksichtigung der Interessen Deutschlands, Freiburg 1915, p. 38. 94

PAAA/Türkei 177/R 14032, Libanon, vol. 11, Löytved to Wagenheim, A 2046, Damascus, Dec. 22nd 1914. 95

Galli, p. 38. 96

Schäfer, pp. 27-28. 97

Emil Zimmerman, "Die Bedeutung des Islams für die deutsche Weltpolitik", in: *Die Islamische Welt*, 4 (1917), p. 241. 98

Farah, pp. 231 –232. 99

PAAA/Deutschland 126g, adh1, R 5135, vol. 26, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient. 100

قارن بملحق رقم (3). جرى استخلاص معلومات الجدول من قبل المؤلف. وهي تعود إلى كتيب بعنوان "الظلم

الدولة	عدد السكان (مليون نسمة)	عدد الأميين من بين 10 آلاف جندي	عدد الكتب التي تطبع سنوياً	طول سكك الحديد (كلم)	حجم الثروة القومية بمليارات الماركات	مقارنة لحجم تجارة ألمانيا الخارجية مقابل بريطانيا وفرنسا (دون المستعمرات)	عدد مراكز البريد
ألمانيا	68	2	34.800	63.700	375		51.200
بريطانيا	46	100	12.100	37.700	*345	2 ضعف	24.500
فرنسا	39	320	9.600	51.200	245	3 - 2.5	14.600

* هناك خطأ، على ما يبدو، ما بين اللغتين العربية والعثمانية فيما يتعلق بحجم ثروة بريطانيا. فتنبعاً للكتابة العثمانية، فهي 345 مليار مارك. أما بالنسبة للكتابة العربية، فهي 545 مليار مارك. والصحيح هو 345 مليار مارك، ذلك أن الهدف من هذا الرسم هو إظهار تفوق ألمانيا على دولتي الوفاق الودي بريطانيا وفرنسا.

بالإضافة إلى ذلك، لفتت الدعاية إلى المعاملة الكريمة التي يلقاها الأسرى المسلمون في معسكراتها والسماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية والاحتفال بالأعياد الإسلامية. ويبرز ذلك بوضوح من خلال مراسلة مؤرخة في السادس من أيلول 1915، يبلغ فيها أسير مسلم في معسكرات الاعتقال الألمانية أبيه عن المعاملة الحسنة التي يلقاها من قبل الضباط الألمان، وكيف يُسمح له بالصلاة والصوم وقراءة القرآن الكريم. ويخبره في رسالة أخرى عن أنه لا يقوم بخدمة شاقة، وإن جميع زملاءه الأسرى يشكرون ألمانيا على حسن معاملتها وأيديها البيضاء ويتضرعون إلى الله كي ينصرها مع الدولة العثمانية لتخليص الإسلام والمسلمين من استبداد الطغاة.¹⁰²

ومن ناحية أخرى، أظهرت الدعاية الإمبراطور وليم الثاني على أنه صديق للمسلمين ويقدر أبطالهم التاريخيين،¹⁰³ ولم تحاول هذه الدعاية أن تنفي الشائعات التي كانت تسري هنا وهناك حول

والحق". ويحتوي على غلاف ملون وعلى منشورين وثلاثة عشر رسماً كاريكاتورياً ملوناً يحمل كتابات باللغتين العربية والعثمانية. وكانت هذه الكتيبات ترسل إلى متقنين في الدولة العثمانية في إطار الدعاية الألمانية ضد دول الوفاق الودي. راجع في هذا الخصوص الأرشيف السياسي لوزارة الخارجية الألمانية:

PAAA/ R 1531, Deutschland Nr. 126g, adh1. Vol. 22, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient. وفي هذه المناسبة، أشكر الدكتورة ماريا كايبرت (Maria Keipert) المسؤولة عن الأرشيف السياسي في وزارة الخارجية الألمانية - برلين (دائرة 117) على المساعدة والإجازة في سبيل الحصول على صور ملونة عن الكتيب المذكور. كما أشكر البروفسور أكسل هافمن (Axel Havemann) من جامعة برلين الحرة على مساعدته القيمة في تأمين تصوير الكتيب إيصال الصور المستنسخة إلى بيروت.

Hagen, pp. 225 – 228. ¹⁰²

على سبيل المثال: زيارة الإمبراطور لضريح السلطان صلاح الدين بدمشق في تشرين الثاني عام 1898 حيث ¹⁰³

وضع عليه إكليلاً من الزهر وقال: "إن صلاح الدين كان الأية الكبرى في زمانه لناحية الشهامة والعدل والكرم". أنظر: عبد الرؤوف سنو، "رحلة إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني إلى الشرق في مرآة الصحافة العربية المعاصرة"، في: *تاريخ العرب والعالم* (بيروت)، 180 (1999)، ص 75-76. وفي السياق عينه، أهدى الإمبراطور في حزيران 1915 ضريح صلاح الدين ثرياً في محاولة لكسب تأييد السكان المسلمين في بلاد الشام لمصلحة الحملة العثمانية على السويس. وقال لويقتد (Löytved)، قنصل ألمانيا في دمشق، في هذه المناسبة "إن الإمبراطور وليم الثاني أراد إهداء هذه الثريا بمناسبة زحف الجيش العثماني على مصر وتأييداً لرابطة الأخوة في السلاح بين الجيشين الألماني والإسلامي... (و) لتكون الثريا تذكراً لهذا الزحف الدال على العزيمة والشجاعة". وأضاف القنصل: "أني أفتخر بهذه الرابطة الموحدة التي تآكدت بين الدولة العثمانية وثلاثمائة مليون مسلم المرابطة بالخلافة العظمى وبين إمبراطور ألمانيا وملكته". أنظر:

PAAA/Türkei 177/R 14032, vol. 11, Löytved an Wagenheim, A 2046, Damascus, Dec. 22nd. 1914.

وقارن بـ:

اعتناقه الإسلام سراً،¹⁰⁴ وبقرب تحول شعبه إلى الدين الجديد.¹⁰⁵ كل ذلك من أجل التقرب إلى المسلمين والاستفادة وتوسيع جبهة العداء العربية ضط دول "الوفاق الودي". ويندرج في سياق السياسة الإسلامية هذه، إهداء الإمبراطور ضريح السلطان صلاح الدين في دمشق تزيماً بمناسبة الحملة العثمانية على السويس.

إن إلقاء نظرة متفحصة على مضامين بعض المنشائر والكتيبات الدعائية الألمانية يظهر بوضوح كيفية توظيف ألمانيا لمشاعر المسلمين وعواطفهم الدينية وطموحاتهم وتطلعاتهم الوطنية في التحرر والتخلص من الاستعمار من أجل صراعها مع دول الوفاق الودي. جاء في أحد المنشائر الموجهة إلى المسلمين والتي وزعتها أجهزة الدعاية: إن "ألمانيا والنمسا والمجر وبلغاريا كل منها صارت الآن ظهيرتكم وعونكم على حرب أعدائكم فأتجدوهم جميعاً وما عهدنا الدولة الألمانية إلا بدأً بيضاء نقية من كل اعتداء عليكم".¹⁰⁶ ومن المنشائر، تلك التي تحدثت عن ولاء المصريين لدولة الخلافة وللخديوي عباس حلمي (1874-1944)، وحثت الشعب المصري على الثورة ضد البريطانيين.¹⁰⁷ وخاطب منشور آخر المصريين حاثاً إياهم على النهوض من سباتهم وإعلان الثورة ضد الإنكليز مستفزاً حميتهم الإسلامية والشرقية بالقول: "أيها الشعب المصري وأبناء الإسلام جميعاً هل لكم في أن تنتهبوا من رقدتكم وتفقوا من سكرتكم وتذبوا عن حيبتكم وتعملوا إلى تحريركم من يد الظالم المستعبد لكم الذي قضى على بلادكم ودينكم وإحساسكم الشرقي وسيقضى على أعقابكم ما دتمت تحت نير العبودية ترتعون. هل لكم في أن تذكروا الشهامة العربية والشعور بوحدة الإسلام وتقتدوا (بالإبطال) ... ويكون لكم أيضاً عصر مصرية يخلدها لكم التاريخ ما تواتت العصور؟ فنحن نسألكم متى تكون العصر المصرية؟ متى تكون العصر المصرية؟"¹⁰⁸

ويبرر أحد المنشائر سبب سكوت ألمانيا على الاحتلال البريطاني لمصر منذ العام 1882 بأن الدولة العثمانية لم تكن جاهزة لعمل عسكري، مما اضطر حكومة برلين لتأجيل تحرير مصر إلى الوقت المناسب الذي تكون فيه السلطنة جاهزة لخوض الحرب. ويحاول المنشور إثارة مشاعر المسلمين من خلال التأكيد على دعم ألمانيا للدولة العثمانية في سياستها الدولية وتقديم القروض لها وإعادة تنظيم جيشها، وأنها، أي ألمانيا، "بحبها الوطيد للإسلام ودفاعها عنه وعن الضعفاء"، قد وفرت كل الوسائل أمام الشرق الإسلامي للثأر من دول الاستعمار.¹⁰⁹ ويضيف المنشور بالقول: إن ألمانيا والدولة العثمانية تتصدیان لمحاولات دول الوفاق الودي تدمير الإسلام وهدم الكعبة وقبر الرسول. ويتساءل، عما إذا كان المسلمون يرتضون مصيراً كهذا لدينهم ومقدساتهم. فيدعوهم إلى

C.L. Sulzberger, "German Preparation in the Middle East", in: *Foreign Affairs* 50, 3(1942), pp. 663 – 665.

George Lenceowski, *The Middle East in World Affairs*, pp. 50 –51. ¹⁰⁴

Richard Schäfer, *Islam und Weltkrieg*, Leipzig 1915, p. 5. ¹⁰⁵ قارن بـ:

عنوان المنشور "ألمانيا ودولة الخلافة"، في: Hagen أنظر الملحق. ¹⁰⁶

Donald M. Mc Kale, "Influence Without Power: The Last Khedive of Egypt and the Great Powers, 1914-18", in: *Middle Eastern Studies* 33, 1 (1997), p. 23. ¹⁰⁷

PAAA/WK, Nr. 11 g, R 21123, vol. 1, Semiar für orientalische Sprachen to ¹⁰⁸
Unterstaatssekretär im A.A.. L 365116, A 20625, Berlin den Sept. 5th 1914. Mit Anh.

Hagen, p. 254. ¹⁰⁹

الوقوف وقفة رجل واحد. ويخاطب حميتهم الإسلامية ضد أعداء الإسلام وألمانيا، بالقول: **'فانهضوا (أيها المسلمون) لأمر الله ولأمر خليفة المسلمين وأمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين مكة والمدينة السلطان محمد رشاد الخامس نصره الله، الذي أعلن الجهاد المقدس في سائر أقطار الأرض على الدول الثلاث المذكورة (بريطانيا وفرنسا وروسيا)... إن دولة الإسلام والألمان والنمسا معكم والحال بيننا وبينهم واحدة، وإن من يكون مع جيش الأعداء وفي صفوفهم فحرام عليه أن يحارب الدول المتفقة مع الإسلام فإنه مسؤول عند الله فيجب عليه أن يلتحق بصفوف الألمان والنمسا (كذا) والعثمانية وعليه أمان الله ورسوله ويكون معززاً مكرماً ومن فعل خلاف ذلك فقد باء بغضب الله...'** ¹¹⁰

وبعدما عدد منشور آخر سياسة دول الوفاق الودي في تقاسم العالم الإسلامي ونهبه وتدنيس مقدساته وإخضاع بريطانيا وروسيا وفرنسا على التوالي 100 مليوناً و40 مليوناً و30 مليوناً من المسلمين لحكمها، ختم بلفت انتباه المسلمين إلى أعدائهم، فقال: **"هؤلاء هم أعداؤكم وهذه هي أفعالهم معكم وهذه هي أفكارهم فيكم وفي دينكم وفي كتابكم (المقدس) ودينكم وبيتكم الحرام"....** ¹¹¹ ويوجههم مباشرة إلى ما يتوجب عليهم القيام به تجاه فرنسا بالقول: **"اقتلوا جميع الفرنسيين اقتلوهم جميعاً جميعاً... انبحوا الفرنسيين انبحوهم جميعاً جميعاً"** ¹¹² أما حلفاء الإسلام ومناصريه ومحاربيه، فهم الألمان تبعاً لما جاء في المنشور. فانه **"قيض الله الأمة الألمانية صاحبة الإخلاص للإنسانية والعالم الإسلامي وصديقة خليفتنا المعظم... وعقدوا النية جميعاً على تخليصكم من يد أعداء الله الموسكوف والإنكليز والفرنسيس وأعلن الجهاد بإرادة من أمير المؤمنين، وصار الجهاد بذلك فرض عين على كل مسلم ومسلمة كبير وصغير"**. ويختتم المنشور بالتحذير من الاستماع إلى أكاذيب الأعداء وخصمه. ¹¹³

ولا تقتصر الدعاية الألمانية على المناشير فحسب، إذ يحتوي الأرشيف السياسي في وزارة الخارجية الألمانية على كتيبات فيها رسوم كاريكاتورية دعائية ملونة باللغتين العربية والعثمانية تعود لصيف عام 1917. وكان مثل هذه الكتيبات ترسل إلى شخصيات عربية وإسلامية. ويدور فحوى رسوم إحداها "الظلم والحق"، ¹¹⁴ الذي عثرنا عليه في الأرشيف السياسي في وزارة الخارجية الألمانية - برلين، حول تفوق ألمانيا على أعدائها في الديموغرافيا البشرية ومجالات الاقتصاد والبنى التحتية والتنظيم الإداري والتعليم (أنظر ملحق رقم 3). ويظهر الكتيب أيضاً تفوق "دول الوسط" عسكرياً من خلال إبراز سيطرة جيوشها على المنطقة الممتدة من بحر الشمال وحتى آسيا الصغرى، وفي عدد أسرى دول الوفاق الودي في أيدي دول الوسط. وتلفت الرسوم الانتباه إلى بدايات التغلغل التجاري لدول الوفاق الودي في الهند ومصر وشمال إفريقيا والقوقاز، وكيف أن هذه

¹¹⁰ نقلاً عن: Hagen, pp. 220 –221.

¹¹¹ نقلاً عن: Hagen, pp. 218 –219.

¹¹² منشور بعنوان "العصر الصقلية" في: PAAA/WK Nr 11g, R 21123, vol. 1, A 20625, Seminar für orientalische Sprachen to Staatssekretär, Berlin Sept. 5th 1914.

¹¹³ نقلاً عن: Hagen, pp. 218 –219.

¹¹⁴ PAAA/ R 1531, Deutschland Nr. 126g, adh1. Vol. 22, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient, 16266.

الدول تمكنت بعدد قليل من مواطنيها المستعمرين من أن تستعبد شعوب هذه البلدان وتستغلها وتمتص ثرواتها القومية وتعمل على إفقارها (أنظر ملحق رقم 4).

وتحت عنوان "الجور والعدالة"، أي جور دول "الوفاق الودي" وعدالة ألمانيا وحليفاتها، ذكر منشور دعائي في الكتيب المذكور أن الشرق الإسلامي قد انحاز إلى جانب ألمانيا بعدما لمس منها صداقة قديمة وإخلاص، ولأن الألمان لم يظلموا المشرقيين ولم يعتدوا على بلادهم أو يخذعهم كما فعلت دول الوفاق الودي. ويضيف المنشور أن سبب انضمام المسلمين إلى ألمانيا والنمسا/هنغاريا في الحرب هو من أجل الانتقام من دول الوفاق لما فعلته بهم. ويتهم المنشور دول الوفاق الدوي بالعمل على تمزيق ما تبقى من بلاد المسلمين وتوزيعه فيما بينها. ويظهر كذلك انتصار ألمانيا السهل على أعدائها وإلحاق الهزيمة بهم تلو الأخرى، وإن هذا النصر هو كي "يصبح الشرق حراً من مستعبيده طاهراً من الأرجاس والحشرات التي نبتت في أرجانه وكادت تنخر عظامه وتقضي عليه القضاء الأخير". ويختم بالقول: "إن الملايين العديدة من المسلمين في استطاعتهم تمزيق قيود الذل والاسترقاق التي كبلهم بها معتصبو بلادهم لو أتيح لهم أن يستعملوا قوتهم وبأسهم" (قارن بملحق رقم 5).

ومن جهتها، تولت صحيفة "اللويذ العثمانية" نشر المقالات الدعائية ضد دول "الوفاق الودي". فوصفت البريطانيين بالفجور، والفرنسيين بالكذب والروس بالملطخين بالدم،¹¹⁵ واتهمتهم جميعاً بنكث وعودهم، وبأنهم كفرة وأعداء الإسلام يعملون على هدمه وضرب الخلافة الإسلامية ويرتكبون الفظائع بحق المسلمين، ويمنعون المسلمين من الحج إلى مكة أو السماح لهم بممارسة شعائرهم الدينية.¹¹⁶ وبإيعاز من السفارة الألمانية في الأستانة، بدأت صحف عثمانية وعربية تطبل لسياسة ألمانيا، ومن ضمنها "طنين" و"إقدام" الناطقتان باللغة العثمانية، و"العهد" الناطقة بالعربية. كما تم استخدام صحف فارسية للعرض نفسه.¹¹⁷

4) المواقف العربية من الدعاية الألمانية

برزت في الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر تيارات فكرية عديدة اندرجت في أهدافها وطروحاتها وخلفياتها ما بين الإسلامية والجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية والوطنية الإقليمية والعلمانية والقومية العربية. وقد وجد الإسلاميون وأنصار الجامعة الإسلامية والرابطة الإسلامية والوطنيون أنفسهم في معسكر ألمانيا حليفة الدولة العثمانية، على أمل أن تلعب ألمانيا دوراً بعد الحرب من أجل إبراز شخصيتهم الوطنية أو القومية أو الإبقاء على الدولة العثمانية مظلة استراتيجية تحمي العالم الإسلامي. وفي المقابل، انحاز قوميون عرب وقوميون لبنانيون في سورية إلى الشريف حسين وحليفته بريطانيا، فيما تخوف فريق آخر من القوميين العرب من وقوع البلاد العربية في قبضة دول الوفاق الودي. وفي العراق، شكك القوميون العرب في نوايا بريطانيا تجاه بلادهم، فيما تحالف رجال الدين الشيعة وعشائر وسط الفرات مع العثمانيين والألمان في مرحلة الحرب الأولى.

Farah, Die deutsche Pressepolitik, p. 248.

115

عنوان المقال "جرائم بريطانيا بحق تركيا". أنظر: Farah, pp. 228-229.

116

Farah, pp. 247 –248.

117

وفي إطار تحقيق أهدافها من الحرب، سعت ألمانيا للتقرب إلى الشريف حسين وضمه إلى دول الوسط ضد بريطانيا وتكليفه بالدعاية لها في العالم الإسلامي نظراً لما يتمتع به من رصيد عالٍ ومكانة رفيعة. وفي أيار 1915، حدث لقاء في الأستانة بين أوبنهايم والأمير فيصل، نجل الشريف حسين، أكد خلاله الأمير ولاء أبيه للعثمانيين واستعداده لخدمة أهدافهم ضد دول الوفاق الودي. وتمحور الاجتماع حول خطة كبرى غايتها إحداث انتفاضة إسلامية من الهند حتى مصر تحت شعار الجهاد المقدس، وأن يقوم الشريف حسين في الوقت المناسب بإرسال أولاده على رأس وحدات حجازية للمشاركة في حملة عثمانية أخرى على السويس. كما تعهد الشريف بأن يتولى الترويج للجهاد في البلدان الإسلامية وإرسال تقارير عن أوضاع تلك البلدان، فضلاً عن تقرير يقدمه إلى أنور باشا كل أسبوعين عن الأوضاع في الجزيرة العربية.¹¹⁸ ويذكر فيلاغو وكوفار أن أوبنهايم وعد فيصل بعرض مصر بعد تحريرها من البريطانيين.¹¹⁹

وفيما أبقى الشريف حسين على خياراته مفتوحة إزاء التحالف مع ألمانيا والسلطنة العثمانية من خلال اتفاق فيصل - أوبنهايم، كان الألمان يتصلون بعلماء الدين في النجف لحثهم على إعلان الجهاد المقدس ضد بريطانيا ومقاومة حملتها على العراق. كما تشير إحدى الوثائق الألمانية إلى أن برلين رحبت عشية الحرب العالمية بتقارب مع السنة والمسيحيين الملكيين في سورية، فيما رفضت في الوقت نفسه وضع الطائفة الشيعية في لبنان تحت حمايتها. وعلى ما يبدو، وجد الألمان أن "المتأولة" ليسوا عنصراً مهماً في السياسة المحلية، وأن من مصلحتهم تقوية علاقاتهم بالطائفتين الأولين.¹²⁰

ومن أبرز الشخصيات العربية التي تعاونت مع ألمانيا، إما اعتقاداً منها بسياستها الإسلامية المعلنة وتحالفها مع الدولة العثمانية وصراعها مع دول الوفاق الودي، أم بدافع الخوف على مصير المنطقة العربية في حال انهيارت الدولة العثمانية: شكيب أرسلان وعبد العزيز جاويش ومحمد فريد ومحمد فهمي وعبد الملك حمزة وعبد الرحمن عزام ومنصور رفعت. كما سعى الخديوي عباس حلمي بدوره للحصول على دعم ألمانيا والدولة العثمانية لاستعادة منصبه في مصر. وفي العراق، برز عزيز علي المصري، مؤسس جمعية "العهد"، فمال إلى ألمانيا بسبب كراهيته للبريطانيين واعتقاده بضرورة الحفاظ على الدولة العثمانية، إلى ألمانيا، دون أن يتمخض عن هذا "الميل" علاقة مباشرة معها. وقد أثبتت الحرب أن تعامل الزعامات العربية مع ألمانيا، وإن اختلفت أساليب وطرقه، كان بدافع الاستفادة من الصراع الدولي من أجل قضيتهم، وتحت شعار "عدو عدوي صديقي". كما كان للرأي العام في سورية ومصر موقفه تجاه ألمانيا وسياستها الإسلامية خلال الحرب. وعليه، فسوف نتناول ردود الفعل على الدعاية الألمانية لدى الشخصيات الفكرية والسياسية العربية، ومن ثم نلقي الضوء على ردود الفعل الشعبية على هذه الدعاية.

118 PAAA/WK, Nr. 11g, R 21133, vol. 11 A 17149, Wagenheim to Bethmann Hollweg, No. 310, Pera May 22nd 1915; Suppl. 1 & 2 to report 310, Pera May 15th 1915.

119 Filagot/Kauffer, p. 30.

120 PAAA/Türkei 177, R 14032, Der Libanon, vol. 11, Wagenheim to Bethmann-Hollweg, No. 159, A 11497, Therapia. June 7th, 1914.

يعتبر شكيب أرسلان من أبرز الشخصيات العربية التي لعبت دوراً مميزاً خلال الحرب العالمية الأولى ووقف موقفاً معادياً تجاه دول الاستعمار التقليدية. تأثر بمحمد عبده وأخذ عنه موقفه من المدنية الغربية واعتقاده بقدرة الإسلام على الإصلاح. وعن الأفغاني، أخذ الفكر النهضوي الإسلامي والدعوة إلى الوحدة الإسلامية. وقد انصب هم أرسلان على رؤية الإسلام قادراً على التصدي لأوروبا.¹²¹ فنظر إلى علاقة الشرق بالغرب على أنها علاقة صراع حياة وموت. مقت الاستعمار البريطاني معتبراً إياه من أسوأ أنواع الاستعمار، في حين وصف الاستعمار الفرنسي بأنه أشد بربرية، ويأتي بعده الاستعمار الإيطالي. وعندما أتحت له الفرصة لوضع آرائه حول التصدي للاستعمار موضع التنفيذ، سافر إلى طرابلس عام 1912، حيث أخذ يحرض الأهالي هناك ضد الاستعمار الإيطالي.

وعلى الرغم من أن أرسلان لم يشأ أن يفرق بين الدول الغربية لناحية الاستعمار، إلا أنه نظر إلى ألمانيا على أنها دولة لم تمارس سياسة استعمارية تجاه البلدان العربية، وعلى أنها حليفة للسلطنة العثمانية ورفضت تقاسم ممتلكاتها مع الدول الغربية.¹²² ورأى أرسلان أن الدولة العثمانية على الرغم من ضعفها آنذاك، إلا أنها شكلت مع ذلك مظلة استراتيجية تحمي العرب والمسلمين من تعديت دول الاستعمار.¹²³ وكان أرسلان يلتقي بذلك مع محمد كرد علي، الكاتب والمؤرخ الإسلامي وصاحب جريدتي "المقتبس" "الشرق"، الذي دافع عن القضية العربية في وجه العثمانيين، وما لبث أن انحاز إليهم خلال الحرب للأسباب نفسها التي كانت وراء موقف أرسلان من السلطنة.¹²⁴

وصف أوبنهايم شكيب أرسلان بأنه رجل جدي ومستقل ومنتقف وأرزن شخصية سورية، ويتمتع بنفوذ ليس على دروز حوران فحسب، وإنما في كل سورية.¹²⁵ ومن جهته، امتدح أرسلان ألمانيا بأنها منزهة عن الأغراض الخاصة تجاه العالم الإسلامي، ولا تستغل مشاعر المسلمين والعرب في سبيل الاستقلال، كما فعلت بريطانيا وفرنسا وروسيا، وخصوصاً مع الشريف حسين. واعتبر أن شريف مكة يقود المسلمين إلى التفرقة، فيما تعمل دول الوفاق الودي على تدمير الإسلام.¹²⁶ وفي مقال له بعنوان "ماذا تنتظر سورية من الحرب" نشرته مجلة "Der Neue Orient"، أشار أرسلان إلى أن غالبية سكان بلاد الشام هم مع الحكم العثماني، شرط أن يكفل هذا

¹²¹ Hisham Sharabi, Arab Intellectuals and the West: The Formative Years, 1875–1914, Baltimore and London 1970, p. 110.

¹²² زيد عبد اللطيف الحجار، الأمير شكيب أرسلان والجامعة الإسلامية، رسالة ماجستير في التاريخ/الجامعة اللبنانية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الفرع الأول، 1988، ص 241–244.

¹²³ Müller, p. 258.

¹²⁴ حول محمد كرد علي، أنظر مذكراته، دمشق 1948.

¹²⁵ PAAA/Türkei, R 14037, Der Libanon und Mesopotamien, vol. 16, Oppenheim to ?, A 41781, Berlin. Dec 12th, 1917.

¹²⁶ محمد شيا، "الأمير شكيب أرسلان وإشكالية العلاقة بالغرب"، في: الأمير شكيب أرسلان وتحديات عصر النهضة 1869–1946، لبنان 1989، ص 11.

الحكم إحياء العروبة واللغة العربية.¹²⁷ واعتبر أن لا خلاص لسورية إلا في وقوفها إلى جانب الدولة العثمانية، التي عليها أن تبقى على تحالف حميم مع ألمانيا.¹²⁸

من هنا، وبدافع الخوف على الإسلام من مخططات دول الوفاق الودي وإمكانية سقوطه مع الدولة العثمانية، دعا أرسلان الإسلام لأن يكون صديقاً لألمانيا التي تتصدى للساعين إلى الإضرار به وبدولة الخلافة. وفي مقال له بعنوان "الإسلام والرايخ الألماني، قال: "إنه من الواضح إن الإسلام يجب أن يكون صديقاً للذي يضره شرّاً بالإسلام. وأي عدو أقوى من بريطانيا وفرنسا في الوقت الراهن في البر والبحر غير الدولة الألمانية". فدعا إلى أن يبقي المسلمون على تحالفهم مع ألمانيا، وأن يقدموا إليها المساعدة لها كما يحصلون هم بدورهم على دعمها. وختم بالقول: "طالما أن البريطانيين والفرنسيين يمارسون سياسة الاضطهاد ضد البلدان الإسلامية ... طالما أن الأتراك والألمان كتفاً على كتف ضد كل عدو يسعى إلى محاربتهم ... لن ينجح هؤلاء في إطفاء نار الحب المتوقدة في صدور المسلمين والألمان".¹²⁹

بناءً عليه، حدد أرسلان أربعة جوامع تقرب ما بين ألمانيا والإسلام، وهي: إن ألمانيا لا تعمل على استعباد الشعوب الأخرى ونهبها؛ إن ما تسعى إليه ألمانيا هو "الحفاظ على الوجود الحر للشعوب الأخرى"؛ إن بريطانيا، عدوة ألمانيا، تسعى منذ احتلالها لمصر للقضاء على السلطنة العثمانية وزعزعة الرابطة التي توحد ما بين الدول الإسلامية كلها؛ إن ألمانيا هي دولة مخصصة للإسلام ولم تقم في السابق بما يسيء إليه، وخصوصاً الاستيلاء على أراضي المسلمين، كما فعلت روسيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا.¹³⁰

ومن الثابت أن أرسلان أقام علاقات مبكرة مع الدبلوماسيين الألمان سبقت الحرب العالمية الأولى بعشرين عاماً. فارتبط بصدقة حميمة بأوبنهايم ونداه "بصديقي البارون أوبنهايم".¹³¹ وقد رافق أرسلان الإمبراطور وليم الثاني في زيارته إلى بلاد الشام عام 1898 بناء على أمر من السلطان عبد الحميد الثاني.¹³² ومنذ اندلاع الحرب العالمية الأولى، اقترح أرسلان على ألمانيا أن تقوم بتسليح الانتفاضات الإسلامية ضد دول الوفاق الودي، ومعاملة الأسرى المسلمين في معتقلاتها بالحنسنى أو إطلاق سراحهم كي ينضموا إلى وحدات الجيش العثماني.¹³³ كما كان في الوقت نفسه مصدر معلومات للألمان. فكان يرفع إليهم التقارير حول الأوضاع في سورية، ويصف المواقف الشعبية على أنها مؤيدة لدول الوسط، وخصوصاً تحول الدروز عن تأييد بريطانيا إلى جانب ألمانيا، وارتعاد المسيحيين السوريين من الانتصارات التي حققتها ألمانيا والدولة العثمانية. ورأى أرسلان

¹²⁷ فرنر أند/بيتر هاينه، "الوطنيون العرب ونشاطهم السياسي والصحي في ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى"، في: *المجلة التاريخية المصرية*، 27(1981)، ص 205.

¹²⁸ PAAA/Türkei, R 14037, Der Libanon und Mesopotamien, vol. 16, Oppenheim to ?, A 41781, Berlin. Dec 12th., 1917.

¹²⁹ Schekib Arslan, "Der Islam und das Deutsche Reich", in: *Die Islamische Welt*, 7(1917), pp. 416–417.

¹³⁰ Arslan, Der Islam und das Deutsche Reich, pp. 416-417.

¹³¹ الأمير شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، بيروت 1969، ص 221.

¹³² Müller, pp. 254–255 & No.. 77 p. 254.

¹³³ Müller, pp. 202, 228.

أن إلغاء الدولة العثمانية الامتيازات (8 أيلول 1914) ووضع جبل لبنان الخاص في السلطنة، كان ضربة موجحة لرجال الدين الكاثوليك¹³⁴ ولدول الوفاق الودي¹³⁵.

وفي عام 1917، زار أرسلان برلين موفداً من قبل وزير الحربية أنور باشا. فأحاطته حكومتها برعاية خاصة كزعيم درزي رفيع، واستغلت وجوده عندها، بعدما رأت فيه عنصراً عربياً هاماً لمساندة وتقوية السياسة العثمانية تجاه البلاد العربية وشعوبها.¹³⁶ فكان أرسلان ينشر المقالات في الصحف الألمانية ويصدر الكتيبات ويلقي الخطب أمام الألمان والأسرى المسلمين في المعتقلات الألمانية يدعو فيها إلى تأييد ألمانيا. كما كان يهاجم سياسة دول الوفاق الودي، حاثاً المسلمين على الثورة ضدها.¹³⁷ ولم يقتصر نشاطه على ألمانيا وحدها، إذ أصدر من جنيف مجلة "الأمة العربية" (La Nation Arabe). ومن المنشورات التي صدرت عنه في الأستانة، كتيب بعنوان "ماذا فعل الإنكليز بالمسلمين"، أعيد طبعه في دمشق مرة أخرى. وأثناء إقامته في ألمانيا عام 1917، ألقى محاضرة على الألمان حول المجاعة في سورية. فعلى أسبابها بالحصار البحري الذي ضربته أساطيل دول الوفاق الودي على الساحل السوري.¹³⁸

لقد أثارت علاقة أرسلان بألمانيا الكثير من الشكوك حوله. ويؤكد كليفلاند أن تعاطف أرسلان مع دول الوسط لم يكن من أجل منفعة أو غاية شخصية أو خيانة، وإنما بسبب عداوته لسياسات دول الاستعمار التقليدية واستغلالها للشعوب الإسلامية والتضحية بها. وقد عبر أرسلان عن ذلك بقوله: "يموت المغربي حتى تنتصر فرنسا على ألمانيا، ويموت الهندي حتى تتغلب إنجلترا على عدو لها، ويموت التتري في سبيل ظفر روسيا".¹³⁹

وفي مقابل أرسلان، استقرت في ألمانيا مجموعة أخرى من الإسلاميين والوطنيين المصريين، ضمت كل من عبد العزيز جاويش ومحمد فريد ومحمد فهمي وعبد الملك حمزة وعبد الرحمن عزام ومنصور رفعت. كما كانت هناك مجموعة أخرى بزعامة خديوي مصر المعزول عباس حلمي عملت على الاستفادة من الصراع الدولي من أجل مصالحها الخاصة.

¹³⁴ أدى إعلان "الجهاد" إلى انتشار مشاعر الجامعة الإسلامية بين المسلمين في الدولة العثمانية. لكن ذلك، تسبب من ناحية أخرى في ازدياد عداوة المسلمين تجاه المسيحيين في السلطنة، حيث كانت توجه إلى الآخرين الاتهامات بأنهم يؤيدون دول الوفاق الودي. أنظر:

M.E. Yapp, The Making of the Modern Near East, pp. 269-270.

¹³⁵ PAAA/Türkei 177, R 14032, Der Libanon, Bd. 12, Wagenhein an Bethmann Hollweg, Nr 250., A 28594, Therapia Oct.24th 1914. 1 Suppl..

¹³⁶ William L Cleveland. The Role of Islam, op. cit. p. 39.
¹³⁷ أحصى المؤرخ الألماني هوب 32 مقالاً لأرسلان باللغة الألمانية، كتبت جميعها بين عامي 1917 و1918. وتدور هذه المقالات حول علاقة كل من بريطانيا وألمانيا بالعرب والمسلمين والأوضاع المعيشية في سورية، والاقتصادية والعسكرية في الدولة العثمانية، والجبهتين الفلسطينية والقوقازية. كما تناولت الحركة السنوسية والدعاية البريطانية تجاه المسلمين الخاضعين لروسيا. راجع:

Höpp, Texte aus der Fremde, pp. 20-21.

¹³⁸ أرسلان، سيرة ذاتية، ص 225.

¹³⁹ محمد شفيق شيا، شكيب أرسلان. مقدمات الفكر السياسي، بيروت 1983، ص 174.

كان جاويش¹⁴⁰ إسلامياً متشديداً تجاه الاستعمار أكثر منه وطنياً مصرياً، ربطته ببريطانيا عداوة عميقة مزمنة، حيث رأى فيها كل بلاء أصاب مصر والعالم الإسلامي.¹⁴¹ آمن بحق مصر في الحرية والاستقلال وفي الدستور من جهة، وبوحدة العالم الإسلامي ممثلة في الدولة العثمانية وضرورة مقاومة تمزيقها من قبل دول الوفاق الودي من جهة أخرى.¹⁴² وقد مثل جاويش مجموعة من المصريين عملت مع العثمانيين تحت مظلة الصدر الأعظم محمد سعيد حليم، ورفعت شعار "مصر للمسلمين"،¹⁴³ وهو شعار مغاير تماماً للشعار الذي رفعه "الحزب الوطني" وهو "مصر للمصريين". وبسبب مواقفه الإسلامية والوطنية المعلنة المعارضة للبريطانيين، اصطدم جاويش مع فارس نمر، أحد أصحاب جريدة "المقطم"، لتعاونه مع البريطانيين، ومع الشيخ علي يوسف صاحب جريدة "المؤيد" لتبعيته للخديوي، هذا فضلاً عن خصومته مع لطفي السيد لموالته للبريطانيين، ومع محمد رشيد رضا لتحويله عن الجامعة الإسلامية بعد عام 1909 إلى دعم الحركة العربية في بلاد الشام.¹⁴⁴

عندما اندلعت الحرب، اعتقد جاويش أنها فرصة من عند الله من أجل خلاص المسلمين من دول الاستعمار. ونقل سعيد مأمون أبو فضل، أحد المقربين من الجاويش في المدينة المنورة ومن العاملين مع وكالة أخبار الشرق، قول الأخير: "إنه يعتبر نفسه أسعد إنسان لأن الهدف الذي سعى إليه سنوات طويلة أصبح في متناول اليدين".¹⁴⁵ من هنا، اتصل جاويش بالسفارة الألمانية في الأستانة في بداية الحرب، وسافر من هناك إلى ألمانيا في العام التالي، حيث أخذ يعمل مع غيره من الوطنيين المصريين على تقديم النصح للخبراء الألمان فيما يتعلق بالدعاية الألمانية في العالم الإسلامي وكيفية استقطاب المسلمين ضد دول الوفاق الودي. وذكر المستشرق هارتمن أن جاويش كان ينظر إلى ألمانيا على أنها شر لا بد منه، لأن العرب والمسلمين، تبعاً لرأي جاويش، هم ضعفاء ويحتاجونها من أجل قضاياهم.¹⁴⁶

وفي عام 1915، شارك جاويش في الحملة العثمانية على السويس، معتبراً إياها الفرصة المناسبة للتخلص من البريطانيين في مصر والسودان. وفي برلين أسس مع محمد فريد "جمعية

¹⁴⁰ (1876-1929) عبد العزيز جاويش مصري من أصل تونسي، ولد في الإسكندرية عام 1876. درس في الأزهر وتابع دراسته العليا في بريطانيا، وعين في أعقاب ذلك أستاذاً للغة العربية في جامعة أكسفورد. تقلب في مناصب إدارية عديدة في مصر. رأس جريدة "اللواء" الناطقة باسم الحزب الوطني المصري خلفاً لمصطفى كامل، وجراند إسلامية عدة. وبسبب نقده اللاذع للسياسة البريطانية في مصر، تعرض للنفي والسجن. وفي عام 1914، أسس جاويش "الجامعة الإسلامية" بالمدينة المنورة. وخلال الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها، بقي في المنفى، ولم يسمح له بالعودة إلى مصر إلا في عام 1923. وفي عام 1925، عين مراقباً عاماً في وزارة التعليم. وبعد أربع سنوات على ذلك التاريخ، توفى وهو لا يزال في الثالثة والخمسين من العمر. حول عبد العزيز جاويش وسيرته وحياته النضالية والفكرية، أنظر: عبد العزيز جاويش، الإسلام دين الفطرة والحرية، القاهرة لات. ص 6-8؛ أنور الجندي، عبد العزيز جاويش. من رواد التربية والصحافة والاجتماع، المؤسسة المصرية العامة، الهرم 1965.

¹⁴¹ أنور الجندي، عبد العزيز جاويش، ص 5-6، 76-80.

¹⁴² أنور الجندي، عبد العزيز جاويش، ص 83-87.

¹⁴³ أوراق محمد فريد، المجلد الأول، مذكراتي بعد الهجرة 1904-1919، القاهرة 1978، ص 38-39.

¹⁴⁴ الجندي، ص 102-115.

¹⁴⁵ *Korrespondenzenblatt der Nachrichtenstelle für den Orient* (= KBNSO), 16.

Aug. 1915, Bl. 1.

Müller, p. 284. ¹⁴⁶

الاتحاد الإسلامي" التي ضمت جماعة مصر الفتاة وإسلاميين من أوروبا. كما أصدر منذ تشرين الثاني 1916 مجلة "العالم الإسلامي" (Die Islamische Welt) الشهرية الناطقة بالألمانية بمشاركة عبد الملك حمزة. وكانت هذه المجلة الممولة من قبل الدولة العثمانية والمدعومة من قبل أجهزة الدعاية الألمانية، توأماً لمجلة أخرى حملت الاسم نفسه وصدرت في الأستانة باللغة العربية ابتداءً من أيار 1916. وكان الهدف من المجلة الناطقة بالألمانية هو تعريف القارئ الألماني بالعالم الإسلامي "ثقافة وتقاليد وطموحات وأمالاً ونموذجاً"، وتدعيم العلاقات بين ألمانيا والإسلام وبين ألمانيا والدولة العثمانية، وتقوية العلاقات العربية – العثمانية في إطار الجامعة الإسلامية.¹⁴⁷ وجعل جاويش من المجلة الناطقة بالألمانية منبراً لمهاجمة دول الوفاق الودي، وتوجيه اللوم إلى المسلمين لوقوعهم في خداعها وسفك دمائهم من أجلها دون فائدة.¹⁴⁸ ورأى إن على ألمانيا أن تؤيد طموحات الشعوب الإسلامية وتعمل على رقيهم.

بالإضافة الى ذلك، شارك جاويش في إصدار مجلة "الجهاد" الناطقة باللغات الشرقية والتي خصصت للأسرى المسلمين، وعمل على الكتابة في المجلات الألمانية.¹⁴⁹ وفي برلين، نشر كتاباً بعنوان "مصر والحرب". وفي مقال آخر له بعنوان "الإسلام وألمانيا" نشر في مجلة (Deutsche Revue) الصادرة في شتوتغارت في أيلول 1915 قال: "نحن لا نستطيع أن نختار شعباً مناسباً إلا الألمان، لأن أصدقاءهم هم أصدقاؤنا وأعداءهم هم أعداء المسلمين". من هنا، أضاف: "إن الألمان والمسلمين يتيمان بعضهم بعضاً"¹⁵⁰. واعتقد جاويش أن الإسلام "وجد... في ألمانيا الصديق الصحيح والحقيقي"، و "بمساعدها يمكن الارتقاء إلى إمكانات كبيرة، لأن روح النظام الذي توصلت إليه ألمانيا ليس أكثر مما يطلبه ديننا" (الإسلام).¹⁵¹

كما قام جاويش بإلقاء الخطب على الألمان لتبديد مخاوفهم من مسألة الجهاد الإسلامي، وكذلك على الأسرى المسلمين في المعتقلات الألمانية محذراً إياهم من هدر دمائهم في حروب دول الوفاق الودي المدمرة للإسلام.¹⁵²

وإلى جانب نشاط جاويش، كان محمد فريد ومحمد فهمي وعبد الملك حمزة وعبد الرحمن عزام ومنصور رفعت يشنون من العواصم الأوروبية (جنيف، برلين، فيينا) الخطب والتصريحات ضد البريطانيين. كان موقف الحزب الوطني بشكل عام من الحرب الكونية هو الموقف الذي أرساه سابقاً زعيمه مصطفى كامل والقاضي باستغلال الظروف الدولية وتضارب المصالح بين الدول الإمبريالية في المسألة الشرقية من أجل تحرير مصر من الاحتلال البريطاني وضمها مجدداً، لأسباب استراتيجية، إلى حظيرة الدولة العثمانية شرط إبراز شخصيتها الوطنية. كان كامل

Höpp, Arabische und islamische Periokika, p. 13. 147

Höpp, Die Wünsdorfer Moschee, p. 209. 148

حول مساهمات جاويش في الصحافة الألماني، راجع: Gerhard Höpp, Texte aus der Gremde. Arabische politische Publizistik in Deutschland, 1896-1945. Eine Bibliographie, Berlin 2000, p.84 –85. 149

PAAA/WK, Nr. 11g, , R 21136, vol.. 14, Bl. 69 –71. 150

Höpp, Gerhard, Zwischen Entente und Mittelmächten, p. 835. 151

Gerhard Höpp, Die Wünsdorfer Moschee, p. 209. 152

يعتقد أن انقطاع العلاقات مع الدولة العثمانية يؤدي إلى سقوط مصر نهائياً في أيدي البريطانيين.¹⁵³

وقد حاول الحزب الوطني بداية استغلال التناقضات الاستعمارية بين بريطانيا وفرنسا وكسب الدولة الثانية إلى مشروع إنهاء الاحتلال البريطاني لمصر. لكن "الاتفاق الودي" بين الدولتين عام 1904، جعله يواصل تقاربه مع ألمانيا- هذا التقارب الذي كان قد بدأ في التسعينات من القرن التاسع عشر على يد مصطفى كامل (1874-1908) وحافظ عليه خليفته محمد فريد فيما بعد.¹⁵⁴ كما حاول الحزب في الوقت نفسه، التقرب إلى الدولة العثمانية عبر استغلال مفاهيم الجامعة الإسلامية التي تربط ما بين السلطنة ومصر من أجل الهدف المصري الوطني الأسمى، وهو تحرير البلاد من الاستعمار البريطاني.¹⁵⁵

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، حصل تقارب بين أعضاء الحزب الوطني وبين الخديوي عباس حلمي يجمعهما معاً عدائهما المشترك للبريطانيين ومصالحة الأخير في استعادة منصبه السابق.¹⁵⁶ وقد قبل الخديوي بشروط محمد فريد ووقع منشوراً في 11 تشرين الثاني 1914 يعلن فيه منح دستور للمصريين.¹⁵⁷ وقد اعتقد الوطنيون المصريون أن تعاوناً بينهم وبين العثمانيين والخديوي عباس حلمي والحركة الطلابية المصرية في ألمانيا المؤيدة لمبادئ الحزب، يمكن أن يجبر البريطانيين على التخلي عن مصر.¹⁵⁸ وبناءً عليه، انحاز رجال الحزب الوطني إلى جانب الدولة العثمانية وألمانيا، مع إبداء الحذر من سياسة الدولتين تجاه مصالح مصر الوطنية في حال انتصرت دول الوسط في الحرب. فالدولة العثمانية، كانت تسعى إلى إعادة سيطرتها على مصر وإلغاء حكمها الذاتي المكرس في عامي 1841 و1873، فيما كانت ألمانيا تسعى لاستغلال الحركة الوطنية المصرية المعارضة للاحتلال البريطاني من أجل تحقيق أهدافها من الحرب. من هنا، سعى محمد فريد للإبقاء على علاقات متوازنة بين العرب والعثمانيين، وعلى الأخذ بعين الاعتبار المسألة المصرية في مفاوضات السلام بين دول الوسط ودول الوفاق بعد الحرب. كما كان حذراً في الوقت نفسه من الوقوع في شباك الدعاية الألمانية إدراكاً منه لأبعادها وأهدافها. وعلى الرغم من قوله في مذكراته حول علاقته بالألمان: "...إننا لن نخسر شيئاً زيادة عما خسرناه لأن، وهو الاستقلال"، فقد كان محمد فريد يخشى من أن يؤدي دخول الألمان إلى مصر من أجل طرد البريطانيين منها إلى استحواذهم عليها.¹⁵⁹

¹⁵³ عبد العظيم محمد إبراهيم رمضان، تطور الحركة الوطنية في مصر من سنة 1918 إلى سنة 1936، القاهرة، لات، ص 33-34.

¹⁵⁴ زكريا سليمان بيومي، الحزب الوطني ودوره في السياسة المصرية 1907-1953، القاهرة 1981، ص 212-216.

¹⁵⁵ Fritz Steppat, "Nationalismus und Islam bei Mustafa Kamil. Ein Beitrag zur Ideengeschichte der Ägyptischen Nationalbewegung", in: *Die Welt des Islams*, (Leiden), N.S. vol. IV, 4(1956); وحول آراء المستشرق شتبات بأن كامل قد استخدم

الجامعة الإسلامية أداة سياسية من خلال تسخير قوة السلطان العثماني كخليفة للهدف الوطني المصري، أنظر:

عبد الرؤوف سنو، "الإسلام والقضية العربية في كتابات المستشرق الألماني فريتز شتبات"، في: *تاريخ العرب*

والعالم (بيروت)، القسم الأول 169(1997)، ص 45-46.

¹⁵⁶ أنده/هاينه، الوطنيون العرب، مرجع سبق ذكره، ص 207.

¹⁵⁷ أوراق محمد فريد، المجلد الأول: مذكراتي بعد الهجرة 1904-1919، القاهرة 1978، ص 32-33.

¹⁵⁸ لطيفة سالم، ص 346.

¹⁵⁹ أوراق محمد فريد، المجلد الأول، ص 35، 36.

بعد قرار الحكومة المصرية دخول الحرب إلى جانب بريطانيا في الثامن من آب 1914 وفرض سلطات الاحتلال إشرافها العسكري على قناة السويس وحماتها على مصر في كانون الأول من العام نفسه،¹⁶⁰ التقت مصالح الحزب الوطني ومصالح ألمانيا معاً. فطلع رجال الحزب الوطني إلى ألمانيا لتقديم دعمها من أجل استقلال مصر كبرهان على صداقتها للإسلام،¹⁶¹ فيما سعت ألمانيا إلى الإعداد لحملة عسكرية على مصر متزامنة مع ثورة يقوم بها الوطنيون المصريون في مصر تفقد بريطانيا من خلالها موقعها الاستراتيجي في قناة السويس، وبالتالي قدرتها العسكرية على التواصل مع الهند.¹⁶² وقد أبلغ فيبر (Weber)، سكرتير الشؤون الشرقية في السفارة الألمانية في الأستانة، محمد فريد في 11 أيلول 1914 عن استعداد حكومته لتزويد الوطنيين المصريين بالسلاح والذخيرة والخبراء العسكريين إذا ما ثاروا ضد بريطانيا.¹⁶³

وبانتظار هذه المساعدة العسكرية الموعودة التي لن تصل أبداً إلى المصريين، تمكنت الدعاية الألمانية من الاستفادة من قلم محمد فريد ولسانه في مقالات ومقابلات صبت ضد دول الوفاق الودي، وخصوصاً ضد بريطانيا.¹⁶⁴ لكن عدم تنفيذ ألمانيا وعودها، وفشل الحملتين العثمانيتين على مصر في شباط 1915 وأب 1916،¹⁶⁵ وسياسة الحكومة الألمانية في استغلال الإسلام لأغراضها الخاصة من جهة، ومراعاتها في الوقت نفسه مصالح الدولة العثمانية الخاصة في مصر من جهة أخرى، جعلت كل هذه الأمور فريد وغيره من رجال الحركة الوطنية يشككون بسياسة ألمانيا تجاه بلدهم.¹⁶⁶

وعلى ما يبدو، فقد اكتفت ألمانيا بتوفير الملجأ لهؤلاء الوطنيين المصريين، وسمحت لهم باستخدام منابرها لمهاجمة دول الوفاق الودي، وخصوصاً بريطانيا. وعندما أصدر السلطان العثماني "إرادة سنوية" تجاه وضع مصر بعد تحريرها من البريطانيين، وتعيين عباس حلمي من جديد خديويًا على مصر، وأن يدخل إليها مع الحملة العثمانية في آن واحد، كان ذلك بإلحاح من

¹⁶⁰ Kramer, op. cit., pp. 69–61, 72 ولاستقطاب الحركة الوطنية المصرية، أصدرت الإدارة البريطانية في مصر في السادس من تشرين الثاني 1914 بياناً جاء فيه أنها بريطانيا تحارب من أجل هدف مزدوج، وهما حماية حقوق المصريين وحرثهم والحفاظ على السلم والرخاء الذين تمتعت بهما مصر منذ الاحتلال

البريطاني لمصر. Kramer, p. 71.

¹⁶¹ سبق أن شكك مصطفى كامل بمصداقية سياسة ألمانيا تجاه الإسلام عموماً، وتجاه تحرير مصر من الاحتلال البريطاني خصوصاً، في مقال له في صحيفة ألمانية عام 1905، حين قال إن إدعاء ألمانيا صداقتها للإسلام يجب أن يقتصر بإخراجها للإنكليز من مصر. أنظر: عبد الرؤوف سنو، "الدعوة إلى الإسلام والعلاقات الدولية: قراءة في الوعي السياسي في مطلع القرن العشرين"، في: *الاجتهاد* (بيروت) 46/45 (2000)، ص 269–270.

¹⁶² بيومي، مرجع سبق ذكره، ص 216–217.

¹⁶³ Raouf Abbas Hamed, "Germany and the Egyptian Nationalist Movement 1882 – 1918", in: *Die Welt des Islams*, N.S., 28(1988), p. 18.

¹⁶⁴ خلال عام 1917، نشرت الصحف الألمانية مقالات وتصريحات لمحمد فريد دارت جميعها حول سياسة دول الوفاق تجاه البلاد العربية ومصر، وخصوصاً محاولة بريطانيا تحطيم الخلافة العثمانية. كما تناولت الحركة العربية والتنافس البريطاني – الفرنسي في الشرق الأدنى وموقف آسيا من الحرب الكونية. أنظر: Höpp, Texte aus der Fremde, p. 38.

¹⁶⁵ Yapp, pp. 272–273.

¹⁶⁶ Hamed, p. 18.

فريد وإيعاز من الألمان الذين كانوا يفكرون بتوفير كل الظروف لنجاح حملتهم على السويس.¹⁶⁷ وقد راوغت ألمانيا عشية تلك الحملة، وأفهمت محمد فريد أنها تريد إزالة البريطانيين من مصر وإعادتها البلاد إلى أهلها.¹⁶⁸ لكنها كانت في الحقيقة تريد توفير كل مستلزمات نجاح حملتها على مصر.

في اليوم الذي أصدر السلطان العثماني فيه إرادة سنوية بتعيين الخديوي عباس في منصبه السابق، كان فاغنهام يبلغ المسؤولين العثمانيين أن حكومته سوف توقف تأييدها المعنوي للخديوي حالما يدخل هذا إلى القاهرة، وأنها لا تعتبره محسوباً عليها ولن تقدم إليه الدعم ضد حكومة الأستانة.¹⁶⁹ من هنا، انتقد فريد ألمانيا ومراوغتها وبأن كل ما تسعى إليه هو أن تسيطر على أفكار الجامعة الإسلامية من أجل أغراضها. فحذر السلطات العثمانية من ترك دعاية الجامعة الإسلامية بأيدي الألمان، لأن ذلك يعرض السلطنة للخطر.¹⁷⁰ وبمزيج من العثمانية والوطنية، طرح فريد نموذجاً جديداً لجامعة إسلامية على الطراز الألماني يقوم على اتحاد إسلامي غير مذهبي يضم الدولة العثمانية وأفغانستان وإيران، بحيث تتمتع كل دولة باستقلال ذاتي، وتكون الدولة الأولى على قدم المساواة مع بقية الدول الأخرى.¹⁷¹ لكن العثمانيين تصدوا لهذه الفكرة، في وقت كانوا يركزون فيه على سياسة الجامعة التركية.

إن وقوف محمد فريد إلى جانب دول الوسط وكرهه للبريطانيين، جعله في موقع معادٍ لكل أعوان بريطانيا من العرب في المشرق والجزيرة العربية. فاتهم الحركة العربية في الجزيرة العربية وسورية بأنها اختراع بريطاني، والشريف حسين بأنه متآمر ضد السلطنة. ووصف محمد رشيد رضا بالعمالة لبريطانيا، والشيخ علي يوسف بتلقي التعليمات من دولة الاحتلال والانصياع إلى تعليمات خديوي مصر.¹⁷² بالإضافة إلى ذلك، اتهم فريد شيخي المحمرة الكويت بالتآمر مع الإنكليز، والصحافة السورية في مصر بأنها تعمل ضد العثمانيين. ودعا فريد إلى التصدي للحركة العربية بالقول: " **حان الوقت لوقف الحركة (العربية) عند حدها وضرب هذه المخططات التي تسعى لتحطيم الإسلام كقوة سياسية تقضي على وحدته الدينية** ".¹⁷³

أما محمد فهمي، فقد استغلته أجهزة الدعاية الألمانية في توجيه رسالة مفتوحة إلى رئيس وزراء بريطانيا يذكره فيها بتبعية مصر إلى الدولة العثمانية بموجب القانون الدولي ويتوعد بريطانيا بجني عواقب سياستها الاستعمارية في مصر.¹⁷⁴ وقامت الصحف الألمانية بنشر مقالات

167 PAAA/WK Nr. 11g, R 21128, vol. 6, Wagenheim an AA, A 4173, No. 279, Pera Feb 2nd 1915.

168 أوراق محمد فريد، المجلد الأول، ص 35.

169 PAAA/WK Nr. 11g, R 21128, vol. 6, A 4173, Wagenheim an AA, No. 279, Pera Feb. 2nd, 1915.

170 Hamed, p. 24.

171 أوراق محمد فريد، المجلد الأول، ص 43. وقارن ب: بيومي، ص 217؛ Hamed, p. 24.

172 Muhammed Ferid Bey, "Die arabische Bewegung", in: **KBNSO** 11(1917), pp. 459-460.

173 Ferid Bey, Die arabische Bewegung, op. cit., pp. 460-461.

174 Hagen, Die Türkei im Ersten Weltkrieg, pp. 204 -207.

لفهمي يهاجم فيها بريطانيا وسياستها المصرية.¹⁷⁶ لكن علاقته بألمانيا سرعان ما فترت، بعدما فشل في الحصول على إجابات واضحة منها حول موقفها من مسألة استقلال مصر بعد الحرب. كما شكك فهمي، كغيره من الوطنيين المصريين، في نوايا الدولة العثمانية تجاه مصر بعد انتهاء الصراع الكوني.¹⁷⁶

على عكس ذلك، انخرط عبد الملك حمزة في نشاطات الدعاية الألمانية، وكان المحرر لمجلة العالم الإسلامي إلى جانب جاويش. وفي برلين، أسس حمزة "جمعية الخميس" التي كانت تتولى عرض وجهة نظر الحزب الوطني على رجال الفكر والعلم في ألمانيا.¹⁷⁷ وخلال إقامته في ألمانيا، أصدر العديد من المقالات التي تناولت الجامعة الإسلامية والمسألة المصرية والحركة الوطنية المصرية والسلطة المصرية الحاكمة وعلاقة مصر والمسلمين بالحرب الكونية.¹⁷⁸

أما عبد الرحمن عزام، فأرسلته المخابرات الألمانية إلى ليبيا على متن غواصة في أواخر الحرب لتحرير مصر من هناك على الثورة. وقد تمكن من القيام باتصالات مع الحركة الوطنية المصرية. لكن هزيمة العثمانيين في نهاية أيار 1918 وتوقيعهم على اتفاقية الهدنة، أجهض هذه المحاولة المتأخرة.¹⁷⁹

وبدوره، توصل منصور رفعت، من مؤسسي الحزب الوطني المصري ومدير القسم السياسي في جريدة "اللواء" الناطقة باسم الحزب، وإن متأخراً، إلى القناعات نفسها التي ساورت معظم الوطنيين المصريين في أوروبا حول نوايا ألمانيا الحقيقية تجاه أماني المصريين في الاستقلال. وما يميزه عن غيره من الوطنيين المصريين في المنفى، هو راديكاليته ورفضه أية علاقة مستقبلية بين بلاده وبين الدولة العثمانية. وحتى صيف 1916، حاول رفعت أن يوفق بين مبادئه لتحرير مصر من الاحتلال البريطاني وعدم عودتها إلى حكم الخديوية أو إلى الحظيرة العثمانية، وبين تعامله مع ألمانيا، التي استغلته في إصدار المنشورات والكتيبات أو الكتابة في الصحف الألمانية لخدمة سياستها الدعائية.¹⁸⁰ وبعد ذلك التاريخ، وجد رفعت أن ألمانيا لا تلعب

¹⁷⁶ من هذه المقالات: "الاعتداء على مصر"، ومصر وبريطانيا". أنظر: Gerhard Höpp, Texte aus der Fremde. Arabische politische Publizistik in Deutschland, 1896-1945. Ein Bibliographie, Berlin 2000, p. 36.

¹⁷⁶ لطيفة سالم، ص 347.

¹⁷⁷ أنده/هابنه، ص 208.

¹⁷⁸ Höpp. Texte, pp. 48–49. وهناك بعض المقالات التي يعتقد أن عبد الملك حمزة كان ينشرها تحت اسم

مستعار هو: ابن مروان.

¹⁷⁹ Hamed, p. 23.

¹⁸⁰ أصدر منصور رفعت عام 1914 ثلاثة كتيبات بتكليف من "وكالة أخبار الشرق" ضد السياسة البريطانية في

مصر والهند، وهي:

"أحداث دنشواي 1906"، و"الاحتلال البريطاني لمصر عام 1882"، والهيمنة البريطانية على الهند". راجع:

Gerhard Höpp, "Zwischen allen Fronten. Der ägyptische Nationalist Mansur Mustafa Rif at 1883-1926 in Deutschland", in: **Ägypten und Deutschland im 19. Und 20. Jahrhundert im Spiegel von Archivalien**, herausgg. Von Wageh Atek/Wolfgang G.

Schwanitz, Kairo 1998, p. 57

كما صدرت كتب عن منصور رفعت في برلين 1915 بعنوان "مقارنة بين مصر والبلجيك" تضمنت تصريحات بريطانية حول مصر ما بين عامي 1882 و1914. وقد انتقد رفعت فيه السياسية البريطانية تجاه مصر. وفي العام

دوراً في تحرير بلاده وأنها متحالفة مع الدولة العثمانية التي تسعى لاستعادة سيطرتها على مصر، هذا فضلاً عن محاولتها استغلال الوطنيين العرب في استراتيجيتها لإحداث ثورات وحركة "جهاد" ضد دول الوفاق الودي. من هنا، انتقد ألمانيا علانية بأنها لا تبيع سوى الكلام، وطالب السلطان العثماني بالتخلي عن سيادته على مصر، لأنها على حد تعبيره هي "ملك للشعب المصري". ولم يشهد مطلع عام 1917 انقلاب منصور رفعت على الألمان والعثمانيين فحسب، وإنما خروجه على حزبه وانتقاده العنيف لمحمد فريد بأنه لا يعمل للحصول على تصريح واضح من ألمانيا والدولة العثمانية حول مستقبل مصر.¹⁸¹

ومن ناحيته، انصب اهتمام عباس حلمي على استعادة منصبه كخديوي على مصر بعد عزله من قبل البريطانيين بحجة "تعاونه مع أعداء جلالة ملك بريطانيا"¹⁸² وتنصيب عمه حسين كامل سلطاناً على مصر. من هنا، سعى للحصول على مساعدة ألمانيا ودول الوسط لتحقيق طموحاته، واتصل بفاغنهايم، السفير الألماني في الأستانة، وأعلن عن استعداده للتعاون مع الدولة العثمانية في مشروع حملة عسكرية على مصر تتزامن مع ثورة شعبية ضد البريطانيين. لكن القيادة العثمانية تلكأت في الاستجابة إلى مطلبه في الاعتراف به حاكماً على مصر في حال استعادت هذا القطر.¹⁸³ فجعله ذلك يحاول دون نجاح مصالحة البريطانيين والانفتاح على الفرنسيين. وقد تلقى الخديوي مبالغ ضخمة من الحكومة الألمانية للقيام بالدعاية لدول الوسط وشراء صحف فرنسية من أجل ذلك.¹⁸⁴ وكما ذكرنا آنفاً، فعشية الحملة العثمانية على مصر، وبتدخل ألماني، أعلنت استانبول في الثاني من شباط 1915 عن نيتها إعادة تعيينه خديوياً على مصر. لكن جيوشها دحرت في اليوم التالي على ضفاف السويس، وتلاشى هذا المشروع¹⁸⁵

وفي العراق، برز عزيز علي المصري (1880 – 1964)، مؤسس جمعية "العهد"، كأكثر شخصية عربية ذات نفوذ بين الضباط العرب في الجيش العثماني. انضم إلى الحركة الحجازية على مضض ولفترة قصيرة وما لبث أن عزل عن قيادة هيئة الأركان فيها بسبب خلافة مع الشريف حسين الذي كان يسعى للاستقلال كاملاً عن الدولة العثمانية. لقد ساورت الشريف الشكوك بأن عزيزاً سوف ينقلب عليه في اللحظة المناسبة بالاتفاق مع العثمانيين والألمان. وعلى الرغم من تأييده للدولة العثمانية، كان المصري يؤمن بفيدرالية عثمانية على النموذج النمساوي – الهنغاري، حيث يؤلف العرب في داخلها دولتهم الخاصة تتمتع بالحكم

نفسه، صدر له كتيب باللغة الإنكليزية بعنوان "صحيفة من تاريخ انكلترا في مصر". ويحتوي الكتيب على ستة صور لعمليات الإعدام التي جرت في دنشواي، بالإضافة إلى صور شمسية للزعيم مصطفى كامل. أنظر: Durpe, 173–175. pp. ولمزيد من المعلومات حول المقالات والتي نشرها رفعت في المهجر، راجع: Gerhard Höpp, Texte aus der Fremde, op. cit., pp. 67–69.

Gerhard Höpp, Zwischen allen Fronten., pp. 53–64. 181

Kramer, op. cit., p. 72. 182

Ann Elizabeth Mayer, 'Abbas Hilmi II: The Khedive and Egypt's Struggle for Independence, vol. II, Ph.D Diss. University of Michigan 1978, pp. 568f. 183

أوراق محمد فريد، المجلد الأول، ص 35؛ جولد شميت، الحزب الوطني المصري، ص 273–274. 184

Donald M., McKale, "Influence Without Power: The Last Khedive of Egypt and the Great Powers, 1914-18", in: *Middle Eastern Studies* 33, 1 (1997), pp. 21–29. 185

الذاتي.¹⁸⁶ وخلال عام 1917، فكر المصري في التعاون مع الألمان، اعتقاداً منه أن بريطانيا ستخسر الحرب، وأن ألمانيا ستحرر مصر وتعيد توحيدها بالدولة العثمانية، حيث تقوم حكومة برلين بالضغط على السلطنة من أجل تطبيق لامركزية تتلاءم مع مبادئ جمعية العهد.

وبالفعل سافر المصري إلى مدريد وبدأ من هناك في نيسان 1918 اتصالات مع المخابرات الألمانية عارضاً الانضمام إليهم وقيادة جيش من 50 ألف جندي ضد دول الوفاق. لكن الألمان، تجاهلوا عروضه اعتقاداً منهم أنه جاسوس بريطاني، مما جعله يتحول إلى جانب بريطانيا، التي أهملته بدورها.¹⁸⁷

وحول مواقف الرأي العام العربي من الدعاية الألمانية، لا توجد دراسة متكاملة حول الموضوع. وكل ما عثرنا عليه، هو إشارات متفرقة هنا وهناك تعطي الانطباع أن تأييداً لدول الوسط قد عم أوساط المسلمين. ففي الولايات العربية، سادت بين المسلمين أجواء مؤيدة للدولة العثمانية وحليفها ألمانيا. وبالنسبة إلى سورية، لم تكن التناقضات العربية – العثمانية التي ظهرت إلى الوجود في فترة ما قبل الحرب لتثير، على الأقل خلال مراحل الحرب الأولى، مواقف عدائية ضد ألمانيا. فكان الانطباع العام في بلاد الشام بأن تحالف ألمانيا مع الدولة العثمانية ليس موجهاً ضد المسلمين، بل ضد بريطانيا وفرنسا، حتى ولو أن قوات ألمانية كانت تحارب جنباً إلى جنب مع العثمانيين ضد الحركة العربية. وكان كثيرون مقتنعين بأن ألمانيا تعمل من أجل استقلال البلاد الإسلامية متأثرين بذلك بالدعاية الألمانية النشطة.¹⁸⁸

وبالنسبة إلى مواقف المسيحيين السوريين، أكد شكيب أرسلان على تعاطف هؤلاء مع دول الوفاق الودي عموماً ومع فرنسا خصوصاً، وتحدث عن مخاوفهم من إلغاء الدولة العثمانية امتيازات جبل لبنان.¹⁸⁹ وذكر يوسف حكيم أن أهالي جبل لبنان كانوا متلهفين لنزول قوات الحلفاء إلى البلاد.¹⁹⁰ ونقلت صحيفة "الماتان" الباريسية تصريحاً للبطريرك الياس الحويك حول استعداد خمسة آلاف مسلح لبناني لمناصرة القوات الفرنسية حالما تقوم بالإبرار على الساحل اللبناني. كما تقدم العديد من المسيحيين اللبنانيين في المهجر للتطوع في الجيوش الفرنسية.¹⁹¹

¹⁸⁶ نظمي، الجذور السياسية، ص 142 – 155.

¹⁸⁷ Tauber, op. cit., pp. 91 – 200.

¹⁸⁸ عبد الرؤوف سنو، المصالح الألمانية في "لبنان"، ص 231.

¹⁸⁹ PAAA/Türkei 177, R 14032, Der Libanon, Bd. 12, Wagenhein an Bethmann Hollweg, No. 250., A 28594, Therapia Oct. 24th 1914. 1 Suppl..

¹⁹⁰ يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، ط4، 1991، ص 159 – 160.

¹⁹¹ الحكيم، بيروت ولبنان، ص 153 – 154، 156. وفي أيلول 1914، أي قيب دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب الوسط بشهرين، بعث شكري غانم رئيس اللجنة اللبنانية في باريس، إلى وزير الخارجية الفرنسية يطلب إليه إبقاء جورج بيكو، قنصلها العام، في بيروت حتى ولو دخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا. وبرر غانم ذلك، بأن وجود بيكو المعنوي سوف يساعد اللبنانيين على الدفاع عن جبل لبنان في وجه اجتياح عثماني. ورأى أنه إذا أمكن تسليح ما بين 10 آلاف و15 ألف لبناني وتزويدهم بالذخائر عن طريق مرفأ بيروت، فسوف يكون بالإمكان طرد العثمانيين. راجع في هذا الخصوص: Tauber, pp. 13f.

ومما يؤكد على الموقف المسيحي المناهض للدولة العثمانية ودول الوسط، هو الاقتراح الذي قدمه جورج بيكو، قنصل فرنسا العام في بيروت ومنذوبها المفاوض مع الحكومة البريطانية إلى وزير الخارجية الفرنسية تيوفيل دلكاسيه حول مصير مستقبل الأملاك العربية في السلطنة العثمانية. وجاء في الاقتراح بأن تقوم قوات فرنسية تقدر بحوالي 2000 من الجنود والضباط باحتلال سورية بمساعدة 30 ألفاً إلى 35 ألفاً من اللبنانيين. وفيما رفضت الحكومة الفرنسية هذا الاقتراح لأسباب سياسية وعسكرية، كان وفد ماروني - أرثوذكسي يزور اليونان للحصول على الأسلحة والبدء بثورة ضد العثمانيين.¹⁹²

وفي بيروت وقبل دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا، انقسمت صحافتها بين فئة مؤيدة لسياسة الحكومة العثمانية ولانتصارات ألمانيا، وأخرى أعلنت عن ولائها لفرنسا وبريطانيا. كما وقفت فئة ثالثة من الصحافة المحلية على الحياد بين الفريقين. وفي جبل لبنان، وساحل المتن وزحلة، عملت الصحافة هناك على تمجيد فرنسا كصديقة للبنان داعية لها ولجيشها بالنصر. وأدى هذا الانقسام إلى حدوث "حرب صحفية" بين جريدة "زحلة الفتاة" الموالية لفرنسا لصاحبها شكري بخاش وإبراهيم الراعي، وصحيفة "الرأي العام" الموالية للألمان لصاحبها طه المدور.¹⁹³

بعد إعلان الجهاد ضد دول الوفاق الودي واستثناء ألمانيا والنمسا/هنغاريا منه كحليفتين للدولة العثمانية وصدور فتاوى شيخ الإسلام الخمس خيري بك في هذا الشأن،¹⁹⁴ والتصريح بـ **"إن رحمة الله وتأييد النبي ستحول الصراع الذي يقوم به أعداء الإسلام دول الوفاق الودي مع ألمانيا والنمسا إلى نصر مبین"**،¹⁹⁵ اندلعت المظاهرات في استانبول في 14 تشرين الثاني 1914 أمام وزارة الحربية العثمانية ثم أمام السفارة الألمانية تأييداً لإعلان الجهاد، وجرت مظاهرات مماثلة في ولايات السلطنة العربية. وأثناء الحملة العثمانية الأولى على مصر، سارت التظاهرات الشعبية المؤيدة في شوارع بيروت قاصدة دار بلديتها.¹⁹⁶

وعلى ما يبدو، تقوت الدعاية الألمانية في أوساط المسلمين من خلال خطاب ألمانيا السياسي وإعلان السلطان العثماني الجهاد ضد دول الوفاق الودي. وبسبب الكراهية لدول الاستعمار البريطاني والفرنسي والروسي، لم يستطع العرب والمسلمون إدراك حقيقة الإمبريالية الألمانية في الدولة العثمانية وأهدافها. فمنذ خطابه الشهير في دمشق عام 1898 حول صداقته للمسلمين ورسائلته الشهيرة إلى قيصر روسيا نيقولا في مناسبة الزيارة تلك حول إمكانية إشهار إسلامه،

192 Eliezer Tauber, The Arab Movements in World War I, London 1993, pp. 11-12.

193 الحكيم، بيروت ولبنان، ص 138-140.
194 جاءت فتوى الجهاد عبر خمس أسئلة وجهت إلى شيخ الإسلام، وأهمها: **"وحيث أن فإلمسلمون الذين هم تحت راية الإنكليز وفرنسا والروس والصرب والجيل الأسود ومن ظاههم في هذه الحرب الحاضرة، لو حاربوا حكومة ألمانيا والنمسا المظاهرة للحكومة العثمانية الإسلامية وكانت محاربتهم لهاتين الحكومتين تستوجب مضرة الخلافة الإسلامية، على ذلك عذاباً أليماً لكونه إثمًا عظيمًا"**. راجع الفتاوى في: إبراهيم نعوم كنعان، لبنان في الحرب الكبرى 1914 - 1918، بيروت 1974، ص 119-120.

195 Hurgronje, Verspreide Geschriften III, The Holy War made in Germany, pp. 272-273.

196 الحكيم، ص 171.

فيما لو لم يكن على الدين المسيحي،¹⁹⁷ أضحى إمبراطور ألمانيا في نظر المسلمين هو "الحاج غليوم"، الذي يدعو له المصلون في مساجد دمشق،¹⁹⁸ وابن السلطان عبد الحميد الثاني الذي أرسله والده سراً إلى برلين للدراسة،¹⁹⁹ والمنحدر من إحدى شقيقات الرسول والمظاهر بالمسيحية كي تبقى قوته وسلطته على رعاياه، مع رغبته وتأكيديه على أسلمة شعبه في الوقت المناسب.²⁰⁰ لقد وصل الأمر بالبعض إلى اعتبار وليم الثاني السيد الذي "... وهبه الله للإسلام (والذي) لا يتبع القانون والأعراف المسيحية المقدسة. فهو الذي ينتقم لأطفال أمته ويقاتل المرتدين والكفرة. ولأنه موثوق الكلام، جعله الله صديقاً للمسلمين. إنه محارب شجاع وبطل، فإذا ما تمعنت في سلوكه تجاه المسلمين، تقول بما لا يحتمل الشك: إنه في عداد النفوس النبيلة التي تخلت عن الأصنام والصليب واتبعت الشريعة التي أنزلها سيد الناس أجمعين على النبي محمد. وعليه، فقد وهبه الله محبتنا ورضانا. فشعوب العالم ترتعد أمام سطوته لاسيما وأنه في تشاور تام مع أمير القسطنطينية... هذا الحاكم هو سلطان الألمان"²⁰¹.

وفي السياق نفسه، استرجعت صحيفة أبابيل البيروتية في 21 كانون الأول 1914 بمناسبة إهداء العاهل الألماني ثريا إلى ضريح السلطان صلاح الدين في دمشق عشية التحضيرات الألمانية - العثمانية للحملة على مصر، زيارة الإمبراطور إلى ضريح السلطان صلاح الدين عام 1898. فتساءلت عن سبب قدوم الإمبراطور إلى دمشق وتمجيده للسلطان صلاح الدين، و".... هل إنه (وليم الثاني) افتتن بعلومه العسكرية وفنونه الحربية (أي صلاح الدين) ... أو إن جلالته وقف على أساس الدين الإسلامي المبين وأيقن إنه هو المنهج القويم والصرراط المستقيم..."²⁰²

وفي مصر، أدى الزحف الألماني على بلجيكا وهزائم بريطانيا، إلى "موجة من الشعور العدائي تجاه الإنجليز والموالي للألمان". واعتبرت صحيفة "الشعب"، لسان حال الحزب الوطني، أن انتصار ألمانيا والدولة العثمانية في الحرب معناه الخلاص من البريطانيين وسلطتهم العسكرية وأحكامهم العرفية.²⁰³ وفي 5 تشرين الثاني 1914، ذكرت المصادر الألمانية أن المصلين في أحد المساجد المصرية ذكروا بالخير رحلة الحج التي قام بها الإمبراطور الألماني إلى فلسطين عام 1898، ودعوا الله لأن ينصر "الحاج محمد وليم الثاني".²⁰⁴ وفي صيف

¹⁹⁷ جاء في تلك الرسالة ما يلي: "كان شعوري الشخصي عند مغادرتي المدينة المقدسة (القدس) مليئاً بالخجل تجاه المسلمين. فلو كنت قدمت إلى هنا دون دين، لكنت تحولت بالتأكيد إلى الإسلام... أعود إلى بلادي بخيبة كبيرة واقتناع راسخ بأن قبر المسيح المقدس يبس في مأمن تحت إشراف أية من الكنائس هناك. هذه الكنائس، بمظهرها وزخارفها، لا يمكن إلا أن تقارن سلباً ببساطة ومهابة وعظمة مسجد عمر"، نقلاً عن: سنو، الدعوة إلى الإسلام والعلاقات الدولية، ص 246.

¹⁹⁸ PAAA/WK 11g, R 21124, vol. 2, E. Schäffer to Mathieu, A 22364, Saarbrücken, Sept. 1914.

¹⁹⁹ Müller, Herbert Landolin, Islam, jihad ("Heiliger Krieg") und Deutsches Reich. Ein Nachspiel zur wilhelminischen Weltpolitik im Maghreb 1914 – 1918, Frankfurt a.M. ect. 1991, p. 166.

²⁰² F.J. Dupre, "The Holy Was that Failed", in: *Moslem World* 8(1918), pp. 173-174.

²⁰¹ Müller, p. 166.

²⁰² سنو، الدعوة إلى الإسلام والعلاقات الدولية، ص 267 – 268.

²⁰³ لطيفة محمد سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى، ص 296.

²⁰⁴ Rathmann, p. 83.

1915، راجت شائعات في مصر عن قرب انتصار ألمانيا ودخول حملة عثمانية ثانية إلى مصر على رأسها الخديوي عباس حلمي لطرد البريطانيين من البلاد، حتى أن البعض روج عن وصول تلك الحملة إلى الدلتا. وبلغ الأمر حداً أزعج سلطات الاحتلال، عندما تجرأت عناصر مصرية على المجاهرة علناً بعداؤها للبريطانيين والدعاء لانتصار ألمانيا. وأصبحت هذه المسألة حديث الناس في المقاهي والنوادي ووسائل النقل، حتى تجرأ البعض على حمل خارطات تحدد جبهات الحرب التي يحقق فيها الألمان انتصاراتهم.

وعلى ما يبدو، كان عملاء ألمان هم وراء الشائعات حول وصول الحملة العثمانية إلى منطقة الدلتا، وإن الخديوي عباس حلمي اتفق مع الألمان على استقلال مصر وسافر من أجل ذلك إلى فيينا. وقد اعترف ستورز (Storrs) السكرتير الشرقي في البريطاني في مصر، بالموجة المعادية لبلادها والشعور المتعاطف مع ألمانيا. وخلال عام 1915، اكتشفت الشرطة البريطانية في مصر شبكة إسلامية سرية مقرها برلين كانت تخطط من أجل القيام بإعمال إرهابية ضد كبار القيادات البريطانية والفرنسية.²⁰⁵ ورد البريطانيون من جهتهم بالتنكيل جلدًا أو سجنًا بالمواطنين المصريين الذين كانوا يدعون لانتصار ألمانيا. وقاموا من جهة أخرى بدعاية مضادة تشيد بفضلهم على مصر والإساءة إلى سمعة ألمانيا وسط السكان المصريين.²⁰⁶ ولا يعود التعاطف المصري مع ألمانيا وتمني انتصارها على بريطانيا إلى ودّ للدولة الأولى، وإنما لأنها كانت عدوة دولة الاحتلال بريطانيا. ومع ذلك، لم يصل عطف المصريين على ألمانيا إلى مستوى الثورة، وذلك بسبب افتقار الشارع المصري إلى القيادة، وخصوصاً بعد تنكيل بريطانيا بالحزب الوطني وتشيتت أعضائه خارج البلاد.²⁰⁷

وبالنسبة إلى العراق، تعاطف سكانه خلال مراحل الحرب الأولى من العثمانيين وحلفائهم الألمان. والسبب الرئيسي في ذلك يعود إلى كراهيتهم للبريطانيين، وإلى الانتصارات العسكرية التي حققتها دول الوسط في مراحل الحرب الأولى. وقد حاولت ألمانيا توظيف مشاعر العراقيين هذه عبر دفع المرجعيات الشيعية في كربلاء النجف لإصدار فتوى تؤيد الجهاد الإسلامي ضد بريطانيا وروسيا، وذلك بهدف جعل إيران تنضم إلى المحور في الحرب، وفي الوقت نفسه تحريض المسلمين في الهند على الثورة ضد بريطانيا.²⁰⁸ وفي هذا الإطار، زارت بعثة ألمانية برئاسة فريدريش كلاين (Kleinexpedition) كربلاء، وأخرى النجف على رأسها عالم الآثار الدكتور برويسر (Preusser) واتصلنا بالمرجعيات الشعية هناك، وذلك في نهاية عام 1914 ومطلع كانون الثاني 1915.²⁰⁹ وبناءً عليه، أصدر علماء الشيعة²¹⁰ فتاوى تدعو للجهاد ضد

²⁰⁵ Faligot/Kauffer, o. cit., p. 28.

²⁰⁶ على سبيل المثال: قيام طائرة بريطانية بقصف بعض أحياء القاهرة وترويح الشائعات بأن ألمانيا هي المسؤولة عن ذلك. أنظر: لطيفة سالم، 305-306.

²⁰⁷ لطيفة سالم، ص 297-308.

²⁰⁸ Werner Ende, Iraq in World War I: "The Turks, the Germans and the Shi'ite Mujtahids' Call for Jihad", in: Rudolph Peters ed. *Proceedings of the Ninth Congress of the Union Europeenne des Arabisants et Islamisants*, Amsterdam, 1st to 7th September 1978, Leiden 1981, pp. 57-58.

²⁰⁹ Gehrke, I.1, p. 56.

²¹⁰ وهؤلاء هم: في (النجف) السيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ عبد الكريم الجزائري والسيد عبد الرزاق الحلو والشيخ جواد صاحب الجواهري. وتبعهم بعد قليل شيخ الشريعة الأصفهاني في إعلان الجهاد ضد البريطانيين. لكنه ما لبث أن تقاهم مع البريطانيين بعد ذلك. وفي كربلاء، أصدر المجتهد علي العراقيين فتوى الجهاد، وأرسل منها نسخة إلى شاه فارس. أنظر: وميض جمال عمر نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة

البريطانيين الذين كانوا بدأوا غزوهم للبلاد في تشرين الثاني 1914. وأعلن المجتهد الأكبر في كربلاء علي خانقين²¹¹ عن استعداده لتزويد الألمان برسالة موجهة الى شاه إيران يحثه فيها على التخلي عن حياده في الحرب والانضمام الى دول المحور.²¹² كما أصدر السيد هبة الدين الشهرستاني، وهو أحد القياديين الشيعة، "فتوى خاصة" ركزت على الصداقة بين المسلمين والألمان استفادت منها الدعاية الألمانية في مناطق جنوب العراق وإيران. وقد ركز الشهرستاني في فتواه على نوايا ألمانيا الحسنة تجاه الإسلام من خلال مسائل ثلاث: زيارة إمبراطور ألمانيا الى ضريحي السلطان صلاح الدين ومحي الدين بن العربي عام 1898، إطلاق ألمانيا سراح الأسرى المسلمين الذين كانوا يحاربون في جيوش الحلفاء، وأخيراً وقوف ألمانيا الى جانب الدولة العثمانية في الحروب البلقانية عامي 1912/1913.²¹³ وفي الوقت نفسه، نشر المجتهد مهدي الخالصي رسالة عنوانها "الحسام البتار في جهاد الكفار" دعا فيها إلى مقاومة البريطانيين،²¹⁴ فيما دعا الشاعر العراقي معروف الرصافي في أشعاره العرب إلى موازنة الدولة العثمانية ضد أعدائها.²¹⁵

وعلى الصعيد العملي، وجدت هذه الدعوات صدى لها في أوساط العراقيين. فانضمت عشائر الفرات الأوسط إلى العثمانيين في الدفاع عن العراق ضد الغزو البريطاني، وهجر الموظفون العراقيون دوائهم وانسحبوا مع العثمانيين المتقهقرين، فيما حافظ الضباط العرب على ولائهم للسلطات العسكرية العثمانية.²¹⁶ ومع ذلك، لم يستمر هذا الوضع طويلاً بسبب التباعد بين القوميتين العربية والتركية، وما لحق بالعثمانيين من هزائم عسكرية على يد البريطانيين وانتشار المجاعة والأوبئة في البلاد، فضلاً عن صدى سياسة البطش التي اتبعتها جمال باشا في سورية في العراق وثورة الحجاز – كل هذه الأمور قضت على تضامن العراقيين مع الدولة العثمانية. فثارت النجف وكربلاء عامي 1915 و1916 وطردتا العثمانيين، وتشجع القوميون العرب وعدد من الضباط العراقيين في جمعية العهد على إنشاء فروع سرية لتنظيمهم في الموصل وبغداد لتحرير المنطقة حتى الخليج العربي جنوباً.²¹⁷ وفي الوقت نفسه، بدأت اتصالات مع الإنكليز بهدف الانضمام إلى الحركة الحجازية.²¹⁸

- القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، ط3، بيروت 1986، ص 125. كما دعا علي العراقيين الشاه للانضمام إلى دول الوسط. لكن كل هذه الجهود الألمانية باءت بالفشل، ولم تؤدي إلى انضمام فارس إلى دول الوسط. كما نظرت السلطنة العثمانية بارتياح إلى التحركات الألمانية في العراق، واعترتها تدخلاً في شؤونها الداخلية. Gehrke, I.1, pp. 56–57.
- 211 يعتقد أنه أن علي خانقين (=علي المازندراني) الذي سلم الألمان فتوى بإعلان الجهاد ضد بريطانيا وحلفائها، لم يكن المجتهد الأكبر لكربلاء (محمد حسين الحريري المازندراني)، بل شقيقه. وكان المجتهد الأكبر محمد حسين قد سبق وأصدر في كانون الأول 1914 مع ثلاثة علماء شيعة آخرين في النجف والكاظمية وسامراء فتوى لإعلان الجهاد ضد بريطانيا، أي قبل وصول بعثة كلاين. ويرى أنه أن المرجعيات الشيعية خشيت من ارتياح العثمانيين من جراء الاتصالات بينهم وبين الألمان، ووجدوا أنه من الحكمة إبعاد المجتهد الأكبر عن هذا الموضوع، وتقرر اختيار شقيقه المجتهد علي العراقيين (علي المازندراني) ليقوم على الفتوى. أنظر: Ende, Iraq in World War I, p. 67–68.
- 212 Ende, Iraq in the World War I, p. 58.
- 213 Werner Ende, Iraq in World War I, pp. 69–70.
- 214 عبد الله الفيض، الثورة العراقية الكبرى سنة 1920، بغداد 1963، ص 109–110.
- 215 Sharabi, Arab Intellectuals, No. pp. 122–123.
- 216 نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية، ص 122-126.
- 217 Eliezer Tauber, The Arab Movements in World War I, London 1993, p. 8.
- 218 وميض جمال عمر نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في

بالإضافة إلى ذلك، اتخذ بعض شيوخ الطرق الصوفية وعلماء الدين مواقف مؤيدة لألمانيا والسلطنة العثمانية ومعارضة لحلفاء بريطانيا من العرب والمسلمين. ففي جريدة "الرأي العام" لسنة 1915، والتي كانت تمولها الدعاية الألمانية، كتب الشيخ زاده أسعد صاحب، شيخ الطريقة النقشبندية في دمشق، مقالاً بعنوان "بيان هام إلى العالم الإسلامي" امتدح فيه السلطان لإعلانه الجهاد من أجل الدفاع عن الدين والوطن ضد بريطانيا وفرنسا عدوتنا الإسلام، وضد روسيا التي تسيء معاملة المسلمين عندها. واعتبر أن قتل الكفرة الذين يتحكمون في العالم الإسلامي هو واجب مقدس على كل مسلم، لأنه من غير المسموح به شرعاً أن يُحكم المسلمون من قبل غير المسلمين. كما طالب البيان المسلمين بمقاطعة دول الوفاق الودي تجارياً وعدم الامتثال لأوامرهم أو دفع الضرائب إليهم. وختم بالقول، إن ألمانيا والنمسا/هنغاريا "هم الأصدقاء الحقيقيون للمسلمين".²¹⁹ واعتبر الشيخ أسعد أن دعم هاتين الدولتين هو واجب على كل مسلم. ونظراً لأهمية الكتيب بالنسبة للدعاية الألمانية، أمر متفوخ بطبع ألف نسخة منه وتوزيعها في المناطق الناطقة باللغة العربية.²²⁰

وفي مقال للشيخ المذكور في مجلة "الجهاد" (العدد 51) نُشر أيضاً في صحيفة "الرأي العام"، اعتبر أسعد صاحب "إن تحالف الخلافة مع الدولتين ألمانيا والنمسا يهدف إلى حماية القرآن وعرش الخلافة"²²¹. كما كان لعلماء الدين في الأزهر موقف عنيف من تحالف القوميين العرب مع البريطانيين. وأصدروا فتوى بعد إعلان الشريف حسين ثورته على العثمانيين تدين "الخونة والمرتدين الذين يؤيدون صنيعة الإنكليز الملك حسين به علي". واعتبرت الفتوى الحركة الحجازية مؤامرة بريطانية لكسر الوحدة الإسلامية.²²²

(5) استنتاج

لقد فشلت الدعاية الألمانية في تحقيق أغراضها. فإعلان جهاد عربي داعم لبريطانيا تسبب في كارثة حقيقية لمشروع ألمانيا في الجهاد "العثماني". فلم يحرك الجهاد الأخير ساكناً عند المسلمين في العالم وراء فكرته الدينية - السياسية، وظل دون صدى، على حد تعبير مراقب معاصر.²²³ صحيح، أنه تسبب في قلق لدى دول الوفاق الودي حول مصير مستعمراتها، لكنه بقي دون تأثير عملي على مجريات الحرب. إن تراجع هيبة السلطان العثماني الروحية، ودعوة

العراق، ط3، بيروت 1986، ص 125 – 155.

Jacob M. Landau, The Politics of Pan-Islam. Ideology and Organisation, Oxford²¹⁹ 1990.pp. 113-114, 351 –357.; Dupre pp. 173-175.

PAAA/ Deutschland 126g, R 1514, Akten betreffend Tätigkeit der Nachrichtenstelle²²⁰ für den Orient, vol. 5, A 34265/15, Mittwoch to ??, Berlin Nov. 22th 1915.

PAAA/Deutschland 126g, R 1514, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient, vol.²²¹ 5, Schabinger to Wesendonk, A 34265, Berlin Nov. 24th 1915.

نقلا عن: نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية، حاشية 42، ص 148-

.149

Paul Schmitz, All-Islam! Weltmacht von morgen, Leipzig 1937, p. 62.²²³

الجهاد التي أطلقها شيخ الإسلام معتمدة على تحالف مع قوى مسيحية (ألمانيا والنمسا/هنغاريا)، نزع عن تلك الدعوة الصفة الشرعية الضرورية لنجاح مشروع التحالف²²⁴، وشكل سلاحاً في أيدي دول الوفاق الودي لمهاجمة الدولة العثمانية واتهامها بأنها متحالفة مع دولة مسيحية.²²⁵ لقد ثبت أن مصر لم تتجاوب مع دعوات التحريض على الثورة، في حين أعلن العرب في سورية والعراق والحجاز جهادهم الخاص وثاروا على السلطنة لمصلحة بريطانيا. ويعود ذلك بشكل رئيسي إلى ثلاثة أسباب، يتعلق الأول بالسياسة العثمانية نفسها تجاه ولاياتها العربية، وفي مقدمها سياسية الاتحاديين في تقديم القومية الطورانية على حساب الجامعة الإسلامية وتجاهلهم للشخصية الوطنية العربية ورغبتهم في استعادة الدولة لسلطتها المباشرة على ولاياتها العربية. أما السبب الثاني فيتعلق بشبكة التحالفات التي أقامت بريطانيا مع الزعامات العربية. أخيراً (السبب الثالث)، أن ألمانيا لم تأخذ في عين الاعتبار مصالح العرب القومية ولم تحاول حتى أن تستغلها، كما فعلت بريطانيا، بل ظلت طوال الحرب تراعي مصالح حليفها الدولة العثمانية التي كانت تسعى لإعادة إحكام سيطرتها على الوطن العربي بعد الحرب.

فبالنسبة إلى مصر، رفض الوطنيون المصريون خلال الحرب استبدال هيمنة عثمانية بأخرى بريطانية. وكان الحزب الوطني على استعداد للقبول بتبعية سورية للدولة العثمانية. إلا أنه لم يوافق على أن تستعيد حكومة استانبول سلطتها المباشرة على مصر بعد الحرب. وفيما يتعلق بسورية، أدت ممارسات جمال باشا ضد القومييين هناك إلى قطيعة بين السكان والعثمانيين. ولم تنفع استغاثة شكيب أرسلان بأنور باشا ولا صداقته معه في إنقاذ القومييين العرب من مشانق القائد العثماني.²²⁶ وكانت السياسة العثمانية هذه إحدى العوامل التي جعلت العراقيين ينضمون بدورهم إلى الحركة الحجازية أو يثوروا ضد الهيمنة العثمانية.

ومن جهة أخرى، تمكنت بريطانيا من أن تلعب على التناقضات العربية – العثمانية (القومية التركية والقومية العربية) وبالتالي احتواء كل مخططات ألمانيا في شقها العربي وتطويق التحالف الألماني - العثماني عبر سلسلة من الاتفاقات والمعاهدات مع إمارات الخليج العربي صبت في استراتيجيتها القاضية بتكوين جبهة عربية واسعة ضد دول الوسط، وخصوصاً ضد الدولة العثمانية: الكويت في رأس الخليج (الشيخ مبارك)، والشريف حسين في الحجاز على الجانب الغربي للجزيرة العربية، وابن سعود في شرقها ووسطها، هذا بالإضافة إلى مركزها المهيمن على ساحل الخليج العربي وفي اليمن الجنوبي. وبذلك، ضمنت بريطانيا حماية ظهرها من قبل السعوديين أثناء حملتها على العراق، وجعلت الهاشميين وحلفاءهم من الحركة العربية ينخرطون في حملتها على سورية.²²⁷

وعلى عكس ألمانيا، تمكنت بريطانيا بدورها من أن تجمع النخب البدوية والمُدنية العربية وراءها وأن تتعامل بذكاء من طموحاتهم الشخصية والقومية. كما استطاعت أن تذلل أية تأثيرات

²²⁴ كوثراني، الأبعاد الجيوسياسية لتقسيم العالم الإسلامي، ص 98 – 99.

²²⁵ PAAA/Deutschland 126g, R 1514, Tätigkeit der Nachrichtenstelle für den Orient, vol. 5, Schabinger to Wesendonk, A 34265, Berlin Nov. 24th 1915.

²²⁶ Tauber, p. 36.

²²⁷ عبد الرؤوف سنو، "اتفاقات بريطانيا ومعاهداتها مع إمارات الخليج (1798 – 1916): فصول من سياسة الهيمنة والتفتيت"، القسم الثالث، في: *تاريخ العرب والعالم* (بيروت)، 17 (1998)، ص 61 – 64.

عكسية على المسلمين الخاضعين لها في مصر والهند من جراء محاربتها للدولة العثمانية والجهاد الإسلامي المعلن من قبل تلك الدولة. فتوددت إلى المسلمين، وأعلنت عن الاستمرار في تطبيق سياستها السابقة في الحفاظ على الأماكن المقدسة في الحجاز وتأمين أداء فريضة الحج. كما أعربت بريطانيا عن اهتمامها بالمشكلات الإسلامية و بملايين المسلمين في الهند.²²⁸ إلى ذلك، أصدرت مع حليفاتها بياناً تؤكد فيه أنها لا تحارب الإسلام، وإنما أهداف ألمانيا في السيطرة على العالم والسياسة الطورانية للاتحاديين.²²⁹

وبدلاً من أن تركز ألمانيا في سياستها الدعائية على حمل الدولة العثمانية على الاعتراف بحقوق العرب القومية، أو حتى إصدار التصريحات والوعود في ذلك الشأن، ركزت دعايتها في العالمين العربي والإسلامي على مضامين الجامعة الإسلامية وعلى ضرورة إطاعة السلطان العثماني بصفته خليفة وبالتالي بقاء العرب تحت مظلته. وفي المقابل، لم تحرك ألمانيا ساكناً تجاه سياسة العثمانيين التعسفية في سورية أو في العراق، ولم تحاول حتى أن توجه أي نقد حازم إليهم. وعن طريق قنصلها العام في بيروت، تمكن العثمانيون من الوصول إلى ملفات القنصلية الفرنسية التي احتوت على أسماء الناشطين في الحركة العربية ضد السلطات العثمانية.²³⁰

وعلى الجبهة المصرية، لم تتمكن ألمانيا من الجمع بين العثمانيين والوطنيين المصريين والخدوي عباس حلمي في معسكر واحد على الدوام. وقد اشتكى الألمان أكثر من مرة من أن الوطنيين المصريين في المنفى قد انشغلوا بخلافاتهم ضد بعضهم البعض أكثر من تكوين كتلة موحدة ضد بريطانيا. ووصف شابنغر بسخرية لاذعة هؤلاء المصريين بـ "المتعطشين للمال".²³¹ وفي الوقت نفسه، لم تستطع ألمانيا أن تجعل من المصريين في الداخل نواة لثورة مسلحة ضد البريطانيين، إذ عجزت عن إيصال الأسلحة والذخائر إليهم.²³² كما لم تفعل دعايتها فعلها بالمصريين وتكون أداة إرباك حقيقي للمحتلين.

وفي الحجاز، باءت محاولات ألمانيا لاستقطاب الشريف حسين، من خلال مفاوضات أوبنهايم – فيصل في مطلع أيار عام 1915²³³ وحث الدولة العثمانية على تعيينه في منصب

²²⁸ زين زين، ص 64 – 66.
²²⁹ أديث وائي، أيف، بينروز، العراق. دراسة في علاقاته الخارجية وتطوراته الداخلية 1915 – 197، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، ج 1، بيروت 1989، ص 86 – 87.
²³⁰ في الواقع، عرف العثمانيون بمكان الملفات عن طريق فيليب ززل، ترجمان القنصلية الفرنسية، عندما أبلغ هذا الأخير إلى قنصل ألمانيا العام عن استعداده للبوخ بمكان الوثائق شرط أن يضمن العثمانيون له حياته. وقام القنصل الألماني بإبلاغ العثمانيين بما لديه من معلومات. أنظر: Tauber, pp. 39 – 40.

²³¹ PAAA/Deutschland, 126g, adh1, vol. 8, Schabinger to Wesendonk, streng geheim, A 1077, Berlin Jan 11th 1916.

²³² PAAA, Türkei 142, Wagenheim to AA, No. 534, A 17853, Pera 19.8.1914.

²³³ أجرى أوبنهايم هذه المفاوضات مع الأمير فيصل بن حسين في الأستانة من أجل استقطاب والده ووقف الجفاء بين الأخير وبين الحكومة العثمانية.

PAAA/Der Weltkrieg/R21132, vol. 11, Oppenheim to Auswärtiges Amt, No. 1055, A. 15281, Pera 5. May, 1915. وكان الألمان يريدون أن يقوم الشريف حسين بتوزيع المنشورات الدعائية

على الحجيج في مكة بنفسه أو تحت إشراف والي جدة وهيب بك. PAAA/WK Nr. 11g, R 21124, vol. 2, Ausw. Amt, Abschrift, A 26481, Oct. 13th, 1914. وأن يقدم الشريف تقريراً سياسياً عن الوضع. وعندما

شيخ الإسلام، بالفشل. ويعود السبب الرئيسي في ذلك إلى مراعاة الألمان لحساسية العثمانيين تجاه هذه المسألة من جهة، وإلى نجاح بريطانيا في إفساد مشروع التحالف بين ألمانيا والشريف حسين بفضل لورانس من جهة أخرى.²³⁴ والجدير بالملاحظة، أن ألمانيا كانت تتفاوض مع الشريف حسين وهي تدرك أنه يتآمر عليها مع عدوتها بريطانيا.²³⁵

أما بالنسبة إلى العراق، فلم تستطع بعثة كلاين وبرويسر تحقيق أهدافهما الاستراتيجية، وهي جر إيران للانضمام إلى دول المحور، وتحريض شيعة الهند على الثورة ضد بريطانيا. إن إدعاء الألمان²³⁶ أن بعثة كلاين قد حققت أهدافها هو أمر مبالغ فيه. فقبيل صدور فتوى الجهاد التي حث عليها الألمان عن المجتهد علي العراقيين في كانون الثاني 1915، كان شقيقه المجتهد الأكبر محمد حسين الحريري المازندراني قد أصدر فتوى مع علماء آخرين في كانون الأول 1914 تدعو للجهاد ضد بريطانيا ودعم الدولة العثمانية. وقد صدرت الفتوى الأخيرة متزامنة مع الاجتياح البريطاني لجنوب العراق، وليس انسجاماً مع مصالح ألمانيا وأهدافها من الحرب. ويعتقد أنه، أن السبب وراء صدور الفتوى عن المجتهد علي العراقيين لمصلحة الألمان والتي لم تغير شيئاً من موقف المرجعيات الشيعية المعادي لبريطانيا في مطلع الحرب، أن كلاين قد دفع مبلغ 50 ألف مارك لتلك المرجعيات كتعويض أولي على الهبات التي كانت تصلها من الهند وأوقفها بريطانيا بعيد اندلاع القتال.

ومن جهة أخرى، أثبتت المعاملة "الحسنة" التي وفرتها ألمانيا لأسرى الحرب المسلمين عندها ومن ثم تجنيدهم في جيوش الدولة العثمانية فشلها.²³⁷ ويذكر هاينه إنه من أصل أربعة آلاف أسير من شمال إفريقيا أعلن حوالي 800 منهم استعدادهم للانضمام مجدداً إلى جانب دول الوسط.²³⁸ وما أن توفرت لهؤلاء الآخرين الفرصة للفرار في ميادين القتال، حتى انضم معظمهم إلى جبهات القتال التابعة لدول الوفاق الودي. وإن دلّ هذا على شيء، فإنما يدل بوضوح على خرافة الجامعة الإسلامية وعلى أن الاتجاهات القومية عند العرب كانت أقوى من

علم العثمانيون باللقاء، احتجوا عليه. Mc Kale, pp. 26 – 27. ²³⁴ كان يتنازع وزارة الخارجية الألمانية اتجاهان، الأول مثله أوبنهايم، ورأى وجوب عدم التقرب إلى الشريف خشية إثارة العثمانيين. ونصح أوبنهايم المسؤولين الألمان بالتخلي عن هذه الفكرة والتركيز دعم مركز السلطان كخليفة وتقوية مركزه في العالم الإسلامي وبالتالي في المشرق العربي. أما الاتجاه الثاني، فعبرت عنه البعثة العسكرية الألمانية في الأستانة وفاغنهايم، والسفير الألماني هناك. فشدد على ضرورة عدم إهمال الشريف حسين. وبعد فشل الحملة العثمانية الأولى على مصر، ساد في وزارة الخارجية الألمانية تيار أوبنهايم حول هذه المسألة. حول هذا الموضوع، راجع وجيه عتيق، دراسات في تاريخ مصر الحديث، مرجع سبق ذكره ص 105 – 112.

²³⁵ هذا ما جاء في تقرير لفاغنهايم، سفير ألمانيا في الأستانة، أثناء محادثات فيصل – أوبنهايم في أيار 1915. أنظر:

²³⁵ PAAA/WK, Nr. 11g, R 21133, vol. 11 A 17149, Wagenheim to Bethmann Hollweg, No. 310, Pera May 22nd 1915.

²³⁶ ما كتب على انفراد كل من الضابطيين الألمانين المرافقين لبعثة كلاين: Hans Lühr, Gegenspieler des Edgar Stern-Rubarth, Drei Manner suchen Europa, و Obersten Lawrence, Berlin 1936 München 1948.

²³⁷ أنه/هاينه، ص 212.
²³⁸ Heine, Al-Gihad, p. 199.

مغريات هذا النوع من التضامن الديني. إلى ذلك، تناقضت ادعاءات ألمانيا بأنها نصيرة الإسلام مع سياستها الاستعمارية، حيث كانت تحكم في مستعمراتها نحو أكثر من 2 مليون إلى 5،2 مليون من المسلمين.²³⁹

لقد اكتفت ألمانيا خلال الحرب باستقطاب الشخصيات الإسلامية والعربية عندها واستخدامهم في حملاتها الدعائية، جاعلة منهم مجرد مصادر للمعلومات أو أدوات للدعاية وليس حلفاء. فمعظم مقالاتهم وكتيباتهم التي نشرت في ألمانيا، كانت تحرر من جديد وتخضع إلى مراقبة من وكالة أخبار الشرق ووزارة الخارجية الألمانية. كما أن تحركات هؤلاء داخل ألمانيا وخارجها، كان يحدث في معظم الأحيان بتخطيط وإشراف من وزارة الخارجية ووكالة أخبار الشرق. وبخسارة ألمانيا والدولة العثمانية للحرب، أضحى الوطنيون والإسلاميون الذين تعاملوا معها عرضة للهجوم والتهم الشنيعة من قبل أتباع الحركة العربية في المشرق.²⁴⁰

Victor Berard, *Le Sultan, L'Islam et les Puissances*, Paris 1907, p. 37. ²³⁹

²⁴⁰ أندوه/هاينه، ص 214.